

١

إستيقظ وعش ..

ترجمة

عبدالمنعم الزيادي

ميلاد دار !!

هذه هي دار الشرق الجديد ...

دار مصرية عربية ولدت لتكون في خدمة الكاتب العربي والقارىء العربي والفكر العربي ... ولدت لتساير الفكر الجديد الذي يهز بعنف رؤوس العرب في كل مكان ويدفعهم نحو التطور والتقدم والعلم والثقافة ...

دار كبيرة لانها تستند الى كل المبادىء الكبيرة التي يفرضها علينا مكاننا الجديد من العالم اليوم ... وهي مبادىء كبيرة بقدر ماهي بسيطة ... وبسيطة بقدر ماهي شريفة ... وواضحة ... وواعية ...

هذه المباديء في كلمات قليلة ...

الثقافة لمن شاء ...!

الثقافة من كل اتجاه ...!

الثقافة من اجل الغد ...!

سنقدم كتباً عربية وصينية وروسية وفرنسية وامريكية وانجليزية ... وبولندية والمانية .. وهندية .

سنسقط الجنسية عن كل كتاب نقدمه لك ما دمنا نعلم اننا في حاجة اليه ... الى الافكار التي ينادي بها ... الاراء التي يدعو اليها ... والنظريات التي يؤمن بها ...

سنقدم دراسات في السياسة ... وفي الادب ... وفي الفن .. سنطوف بك ومعك على كل شعوب الارض لنقرأ افكارهم وحياتهم ... وقصص كفاحهم ومعاركهم ... وقصص نضالهم.

سنقدم اليك اولاً بأول آخر ما وصل اليه الفكر في العالم البعيد والقريب ... ولن نألو في ذلك جهداً .. ولا مالاً . !!

اننا نحاول بكل ذلك ان نساهم بجهود متواضع في صنع العقلية العربية الجديدة ...

العقلية التي تحيط بها المؤامرات والدسائس والتيارات من كل جانب .. وهي صامدة تقاوم وتصارع ... وتناضل .

ان الثقافة هي اللغة المقبلة التي تتكلم بها الشعوب ... وهي المقياس الدقيق الذي توزن به الامم .. والشهادات والمؤهلات الدراسية اصبحت اليوم كالصور التي نعلقها فوق جدران المتاحف بالقياس الى الثقافة التي يمكن ان يتزود بها المواطن عن طريق المكتبات ودور النشر ...

الثقافة اليوم هي صناعة الاقوياء ... ويمكنك ان تصنع نفسك بما تقرأ .. !!

اقرأ باصرار ... وصبر ... وعناد ... لقد انتهى العهد الذي كانت فيه الجامعات هي المكان الوحيد لتخريج المثقفين

وصناعة العقول الكبيرة ...

اصبحنا اليوم نسمع عن جزار مصري قرأ وقرأ حتى يقف ليلقي المحاضرات على خريجي الجامعات في الموسيقى ..!

واصبحنا اليوم نقرأ لشبان لم يمروا على الجامعة ... ولكنهم مروا على منابع الفكر فقرأوا ودرسوا ثم كتبوا ...

اننا سنقدم دون تردد كل كتاب عالمي نشعر انه يضيف الى معلوماتك جديداً ... او الى آرائك رأياً ... او الى افكارك فكرة واحدة ..!

سنقدم اليك سلسلة « **كتب عالمية** » سنشتري حق طبعها في الشرق الاوسط وباللغة العربية ونقدمها اليك لتقرأ في نفس الوقت الذي تقرؤها فيه في بلادهم ...

ولقد وقعنا اكثر من اتفاق مع بعض دور النشر في انجلترا وفرنسا وامريكا وروسيا والصين عن تبادل الكتب الثقافية بيننا وبينهم ... سنقدمها اليك لتنهل من بحر المعرفة ...

سنجعلك وانت في بيتك... او في مكتبك... او في متجرك تساير الفكر العالمي خطوة بخطوة .. ولحظة بلحظة ولن تتخلف ابداً عن قافلة الثقافة العالمية ...

ان الكتاب الذي نقدمه لك اليوم لم نختره نحن ... ولكن اختاره مواطن مصري عاد اخيراً من امريكا .. وجاء لنا بالكتاب وقال عنه بالحرف الواحد :

ان هذا الكتاب هو سر نجاحي في حياتي ... لقد عدت من امريكا ناجحاً ... ومعي مجموعة من الشهادات العالمية وانا

مدين ــ لدوروثي براند ــ المؤلفة بنجاحي ...

لهذا فقط نشرنا الكتاب لينجح الاخرون ... لينجح هؤلاء الذين يعتقدون انهم فاشلين وفيهم كل مؤهلات النجاح واسراره ولكنهم لايعرفونها ..!

نحن نقدم اليك هذا الكتاب كبداية ... بداية للقاء طويل في سلسلة متتابعة،سنحاول قدر امكاننا ان نجعلها في خدمتك ... وخدمة وطنك ... وخدمة جيلك الحائر ...

والى اللقاء في الكتاب المقبل ...

محمد بدر الدين خليل **اسماعيل الحبروك**

هذه الكاتبة ..

ولدت « دوروثي براند » في مدينة شيكاجو ، وتلقت علومها في جامعتي شيكاجو ومتشيجان .. فما ان نالت درجتها الجامعية ، حتى اجتذبتها رائحة حبر المطابع الى « شارع الصحافة » بمدينة شيكاجو ، حيث تقلبت في عدة صحف كمخبرة صحفية ..

وعرضت عليها مجلة « اميريكان ميركوري » ان تتولى منصب « مديرة التوزيع » فتركت شيكاجو الى نيويورك لتتربع على هذا المنصب المرموق ، الذي اكتسبت به خبرة ، وتوقدت فيه نشاطاً ..

ثم تركت « الأميريكان ميركوري » لتلتحق بهيئة تحرير مجلتي « بوكمان » ثم « اميريكان ريفيو » على التعاقب ..

وفيما بين تقلباتها الصحفية الواسعة النطاق ، شرعت دوروثي ابتداء من عام ١٩٣٤ في التأليف وكتابة القصص .. وقد اكسبها عملها الصحفي الطويل خبرة بفن الكتابة القائمة على الفكرة الحصيفة الراجحة ، كما أكسبها منصبها كمديرة للتوزيع خبرة بما يروق للجمهور ويحظى بإقباله ..

وكان أول كتاب أصدرته ، بعنوان « كيف تصبح كاتباً » (١) .. وفي العام التالي – ١٩٣٥ – أصدرت أول قصة بعنوان « السيدة البارعة الجمـــال » (٢) ..وكان ثالث ما أصدرته من الكتب في عام ١٩٣٦ هوهذا الكتاب « استيقظ وعش » (٣)..

وفي هذا الكتاب حاولت ان تنقل الفن الذي اكتسبته من خبرتها الطويلة إلى القراء..فن تحقيق الأهداف وإصابة النجاح..وقد أصاب الكتاب على الفور رواجاً كبيرا ، وما برح يعاد طبعه مرة في إثر أخرى ، منذ تاريخ صدوره حتى اليوم . واقتبس عـدد كبير من المجلات والصحف في أمريكا فصولاً منه . ولخصته مجلة « ريدرز دايجت » كما ترجم الى عدد كبير من لغات العالم منها ، الفرنسية والايطالية ، والدنمركية ، والسويدية ، والألمانيـة ، والأسبانية ، واليابانية ، والهولندية ..

ومن الطريف أن إحدى شركات «السينما» ابتاعت من المؤلفة « عنوان » الكتاب لقاء مبلغ كبير لتجعله عنوان قصة سينمائية .

---

(١) «Becoming A writer»

(٢) « The Most Beautiful Lady »

(٣) « wake Up And Live »

وهذا المترجم

يعتبر عبد المنعم الزيادي من اكثر كتابنا الشبان ثقافة ...
وقد تخصص بالذات في ناحية واحدة اتجه نحوها .. وأصر عليها
هي ناحية الكتابة في الحياة .؟ والترجمة للذين يكتبون عن الحياة.

قرأ كتاب « دع القلق وابدأ الحياة » وهزّه المؤلف.. وأثّر
فيه الكتاب ، وقرر على الفور ان يكون هذا أول ما يقدم لقراء
العربية .. ونجح الكتاب في الشرق العربي كما نجح في كل مكان
طبع فيه .. وأعيد طبعه عدة مرات .. وكان عبد المنعم الزيادي
بذلك اول من قدم ديل كارينجي الى قراء العربية .!

وبعد ذلك اخذ على عاتقه ان يقدم كل كتّاب الحيـــاة الى
قراء العربية .. فترجم لكارينجي ودوروثي براند وجوردون
بايرون ولورانس جولد وجيمس بندر وارنولد جاكسون ووليم ا.
هنري ترجم لكل هؤلاء مؤلفـــاتهم التي تعالج القلق والنجاح
والشخصية والاعصاب ..

ونجح الزيادي مرة اخرى في ان يدخل المكتبة العربية بكل
هذه الكتب .. وسد ثغرة كانت تعانيها مكتبة كل بيت عربي .!

والزيادي هذه الأيام مشغول باعداد سلسلة جديدة تحت عنوان « الشباب والحياة » سيعالج فيها بمنتهى الصراحة والوضوح كل مشاكل الشباب –وما اكثرها– وهذهالسلسلة من احلام الزيادي، بل انه يقول عنها انها من اكبر احلامي. ويسر **دار الشرق الجديد** ان تحقق للكاتب هذا الحلم الجديد ..

وعبد المنعم متزوج من مصرية مثقفة (حكمت عباس سري) وعمره اربعة وثلاثين عاما ،ويعمل حالياً بدار الهلال .. وينتظر هذه الايام ابنه الأول ..

وعبد المنعم يحمل بكالوريوس فيالاداب والصحافة ..ويحمل فوق هذا تاريخاً حافلا في تقديم عشرة كتب كاملة تعالج مشاكل الانسان في كل مكان ..

لماذا ألفت هذا الكتاب ؟..

منذ عامين وقفت على « وصفة » للنجـــاح أحدثت في حياتي ثورة .. كانت من الوضوح والبساطة بحيث صعب علي أن أصدق أنها هي التي أتت بهذه النتائج السحرية المعجزة !

وأعترف أنني كنت ، إلى عامين مضيا ، أنسانة فاشلة ! لم يعلم بهذا أحد سواي وسوى أولئك الذين عرفوني عن كثب، وعرفوا أنني لا أؤدي ألا معشار ما أنا خليقة بأدائـــه .. كنت أشغل مركزاً لا بأس به ، ولم تكن حياتي خامدة جامدة ، ومع ذلك لم يكن لدي أدنى شك في أنني قـد فشلت ، على الأقل فيما بيني وبين نفسي ! ألفيت أن ما أفعله ليس ألا بديلًا مما أردت أن أفعله وأعددت له الخطط ! وأدركت أنه برغم وجاهة الأعـــذار التي كنت أنتحلها لنفسي تبريراً لفشلي ، فقد كان ثمة مزيد من الأعمال في وسعي أن أؤديها ، وأن أؤديها على اكمل وجه !.

وطبيعي أنني كنت أتلمس سبيـلًا للخروج من مأزقي ذاك .

فلما أسعدني الحظ بالعثور على هـذا السبيل ، شككت في أن يكون حظي مواتياً كما بدا !

ولم أحاول بادىء ذي بدء أن أحلل الموقف أو أفسره . فقد كانت « الوصفة » التي اتبعتها من البساطة ، والنتـائج التي ترتبت عليها، من الروعة ، بحيث طغى اغتباطي على الشك وعدم التصديق !.
كنت قبل ذلك أحاول جاهدة ان أتخلص من متاعبي ؛ و كثيراً ما لاح لي انني فعلت ، ولكن لأعود إلى الوقوع في حبائلهـا المتشابكة ! فلما اتبعت هذه « الوصفة » ودأبت على اتباعهـا ، ألفيت نفسي غارقة في متع الحياة ، ومن ثم لم أجد وقتاً للتحليل والتفسير !.

وجدت نفسي أفعل ما كان يلوح لي من قبل مستحيلاً ، وأفعله في سهولة ويسر .. ووجدت الحوائل والعوائق التي كانت تبدو لي قبلاً عصية التخطي ، تذوب كذوبان الجليـد بفعل الشمس الساطعة .. ورأيت قناع الجبن ، والخجل ، والتردد الذي قيدني سنوات عدة ، يسقط مني كسقوط القيد الحديدي متى فتح قفله !

فقد ظللت سنوات عدة جامدة في مكاني لا أتحرك . كنت اعرف ما اريد ان افعله . وقد أعددت نفسي لمهنتي أحسن أعداد. ومع ذلك لم اتقدم قيد خطوة ! اخترت الكتابة ميـداناً لعملي منذ مستهل حياتي ، واقبلت عليها تحدوني آمال عراض .. وقد لقي ما انجزته من اعمال استقبالاً حسناً ، حتى اذا اردت ان اخطو بعد ذلك خطوة اخرى وانتقل إلى وجه انضج من اوجه العمل الذي اخترته ، ألفيت نفسي اشبه بالصخرة الصماء ، واحسست انني

لا استطيع الحراك قيد شعرة !

ومن نافلة القول انني نأيت عن السعادة ، لا إلى حد البؤس والشقاء ، ولكن إلى حد الاكتئاب والقلق لعجزي وقلة حيلتي !

وانشغلت بالتحرير حين لاح لي انني مقدرٌ عليّ ان اخفق في الجانب الأكثر ايجابية من الأدب ؛ ولكنني لم أكف عن استشارة الاساتذة ، والمحللين ، وعلماء النفس ، والاطباء فيما اصنع للخروج من المأزق الذي ألفيت نفسي واقعة فيه ! وتحريت وفكرت ، وقلقت ؛ وجربت كل « وصفة » للخلاص ؛ ولكن ان أجد شيء فلفترة محدودة موقوتة .. فلفترة معلومة انهمك في العمل بنشاط كالذي يبعثه دبيب الحمى ، ثم لا يستطيل هذا النشاط المحموم لأكثر من اسبوع او اسبوعين ، وتنتهي فترة الحماس ، وانا ابعد ما اكون عن الهدف ، واسهل ما اكون فريسة للخيبة واليأس !

ثم جاءت الفكرة التي اطلقتني عن عقالي .. جاءت على غير انتظار ، وعن غير عمد . كنت منهمكة في اعداد بحث ، فوقعت على جملة في كتاب « ف . و . مايرز » « الشخصية الانسانية »(١) تضمنت من الألهام والايحاء ما جعلني اطوي الكتاب جانباً لأتدبر ما انطوت عليه من آراء وأفكار .. وحين عدت إلى الكتاب مرة اخرى ، كنت قد خلقت خلقاً جديداً !.. كل اتجاه ، وكل جانب في حياتي كان قد تغير !..

ولم ادرك هذا في البداية ، كما اسلفت ، ولكن يقيني راح

(١) F. w. Meyrs, « Human Personality »

يزداد يوماً بعد يوم في انني اخيراً قد وجدت سلاحاً لمغالبة الفشل، والجمود، وثبوط العزيمة؛ وانه لسلاح بتار !..

وألفيت أيامي حافلة بالعمل بحيث لم يبق لدي من الوقت ما انفقه في الانسيـــاق وراء خواطري .. راحت الكتب التي حلمت باخراجها، واخفقت في ذلك اخفاقاً مؤلمـــاً، تتدفق كالسيل؛ ورحت اكتب بأقصى ما تستطيع يدي من سرعة ولا احس ان طاقة نشاطي قد استهلكت او استنفدت؛ واخـــذت الافكار الجديدة تنساب الي من مكمنها وراء السد الذي كان قد احتجزها في ذهني !.

وفي خلال الاعوام العشرين التي سبقت وقوعي على هـــذه « الوصفة » كان كل ما انجزته يتألف من : سبع عشرة قصـــة قصيرة، وعشرين نقداً للكتب، وست مقالات للصحف، وثلث رواية ثم كففت عن المضي فيها !.

وفي العامين اللذين اعقبا تلك اللحظة الملهمة، وسعني أن انجز ثلاثة كتب، واربعة وعشرين مقالاً، واربع قصص قصيرة، واثنتين وسبعين محاضرة، وهيا كل ثلاثة كتب جديدة، وعدد لا يحصى من الردود على الاستشارات التي كانت تصلني من مختلف الأفراد.

ولم تكن هذه وحدها هي نتائج تجربتي لهذه « الوصفة » السحرية، كلا، فبمجرد أن استكشفت سرها في اطلاق طاقـــة نشاطي للكتابة، بدأت ابحث متسائلة : ماذا يمكن ان تصنع لي في غير الكتابة من الميادين ؟ ورحت أجربها في كل ميدان

لقيت فيه من قبل نصباً وعناء .

جربتها على الجبن والخجل، وكانت النتيجة باهرة .. ألفيتني اجري المقابلات ، والقي المحاضرات ، وأجد في ذلك لذة لا مزيد عليها .. ووجدت نفسي على وفاق مع نفسي ، لا اعاقبها ولا اعذبها ، ولا ادفعها دفعاً لأستشعر في النهاية التعب والملل ..

وبرغم ما حققته لي هذه « الوصفة » من نجاح باهر ، فانني لم اخبر بها الا قلة قليلة من اصدقائي .. فقد حسبت في غمرة يأس ان حالتي كانت شاذة فريدة وهو احساس أدركت فيما بعد أنه يشركني فيه تسعة وتسعون على الاقل من كل مائة شخص ! ومن ثم فما أفادني لن يفيد غيري .. ثم رحت أتبين رويداً أن كثيرين غيري يضيعون حياتهم بالطريقة نفسها التي كنت أضيع بها حياتي ، وأدركت عندئذ ان هذا الذي أنقذ حياتي يسعه أيضاً أن ينقذ حياة غيري ..

ولولا الصدفة لما خطر لي أن أنشر على الملأ هذا البرنامج البسيط الذي فعل في حياتي فعل السحر .. فمنذ بضعة أشهر مضت ، دعيت لألقاء محاضرة في نخبة من ناشري الكتب ، وكان الموضوع الذي حدد لي هو « الصعوبات التي تواجه الكاتب » .. وكنت قد عالجت هذا الموضوع في احد كتبي ، ولكني لم ارد ان اقرأ على المستمعين ما كتبته في كتابي خاصاً بهذا الموضوع ، وهم لا بد قد قرأوه .. على اني حين شرعت أعد محاضرتي ألفيت أنني في الحقيقة عاجزة عن انأضيف شيئاً الى ما سبق أن كتبت، سوى القول بأن أشق الأمور طراً للكاتب هو أن يتعلم كيف

يغالب جموده وجبنه لكي يبدأ .

ومضيت في تدبر الموضوع وأعداد المحاضرة ، والنتيجة التي خرجت بها هي التي تراها في هـــذا الكتاب ، وتلك أننا ضحايا « أرادة الفشل » فإذا لم ندرك هذه الحقيقة في وقت مناسب ، قضينا أعمارنا دون أن ننجز مانريد ؛ وأن ثمة وسيلة لمغـــالبة « ارادة الفشل » في استطاعتها أن تفعل فعل السحر ..

والقيت المحاضرة .. وذهلت للاستقبال الذي لقيته !.. كنت أقدر أن يجد شخصان ، أو ثلاثة على أحسن الفروض ، فيما قلت معواناً لهم على حل مشكلاتهم ، ولكن سيل الرسائل ، والتعليقات والمحادثات التليفونية اقنعني بأن كل من استمع الى محاضرتي انما كان يعاني ما عانيت ، وأنه كان يترقب ما يخرجه من مأزقه !

والقيت المحاضرة مرتين أخريين ، ولم تكن النتيجة في المرتين لتختلف عنها في المرة الاولى !

لاشك أننا نحيا حياة دون المستوى الذي نحن خليقون به ، فاذا تحررنا من العوامل التي تقعد بنا ، وتعطلنا ، وتقيد نشاطنا ، واقتربنا من الامكانيات الكامنة في نفوسنا ، لرأينا أنفسنا نخلق خلقاً آخر .. وأن حياتنا الطبيعية المتكامـلة التي هي من حقنـا لتبدو لنـــا كأنها شيء خارق للطبيعة متى قسناها بالحيـــاة الناقصــة المترددة المتعثرة التي نفرضها عـــلى انفسنا فرضاً .. فاذا عرفنا هذا ، عرفنا ان اولئك الذين عاشوا عيشة منتجة مثمرة سواء كانوا من الساسة او الفلاسفة او الفنانين او رجال الاعمال ، انما استخدموا في وقت من اوقات حياتهم ، وربمـا عن غير وعي

منهم ، امكانياتهم الذهنية ، في حين اخفق غيرهم في ان يعرفوا ، او في ان يستكشفوا ماهية امكانياتهم هذه ..

ولهؤلاء الذين اخفقوا حتى الآن في استكشاف امكانياتهم ، أقدم هذا الكتاب . انه ليس قصة تطور فكرة ، وانما هو مرشد عملي أهديه إلى كل متطلع الى حياة سعيدة مثمرة .

دوروثي براند

الفصل الأول

لماذا نفشل

الوقت والجهد اللذان ننفقهما لتحقيق الفشل كان يمكن ان ننفقهما لتحقيق النجاح !

هل يبدو هذا اشبه باللغز ؟ أنها الحقيقة التي تنطوي على الأمل والرجاء ..

افترض أن رجلاً على موعد في مكان يبعد مائة ميـل شمالي منزله .. وان هذا الموعد سيعود عليه بالصحة، والسعادة، والفلاح ما بقي له من عمر .. وافترض أن امامه من الوقت ما يكفيـه ليصل في الموعد، وان في خزان سيـارته من الوقود ما يكفي للوصول .. ثم افترض بعد هذا ان صاحبنا رأى من الامتع له ان يتجه اولاً جنوباً مسافة خمسة وعشرين ميلاً قبل ان يشرع جدياً في الاتجاه نحو الهدف .. فما قولك فيما صنعـه الرجل ؟ حماقة ولا شك ! ولم يكن للوقود دخل فيما صنع الرجل .. ولم يختر الوقت على اي وجه ينفقه .. والطريق امتد شمالاً كما امتـد جنوباً .. فليس على ايٍّ من هذه أذن تثريب في تقصير الرجل عن بلوغ غايته !

فإذا حدثنا الرجل بعد ذلك قائلًا انه استمتع بالرحلة التي قام بها في الاتجاه المضاد ، وانه لذّ له ان يقود سيارته على غير هدى بدلاً من ان يسيرها في اتجاه محدد ، فهل نثني على الاسلوب الفلسفي الذي يتقبل به أخفاقه ؟ كلا ؛ بل ينبغي ان نحسبه احمق ..وحتى لو انه اخطأ الاتجاه لاستغراقه في حلم من احلام اليقظة ، لما أعفانا هذا من ان ننحو عليه باللائمة .. بل حتى لو انه وصل وجهته بعد الميعاد لأنه ضل الطريق عفواً ، لاتهمناه بسوء الحكم لانه كان في ميسوره ان ينظر خريطة الطريق ليتعرف عليه قبل ان يبدأ !

وبرغم هذا ، فنحن فيما يتصل باتجاهنا رأساً إلى غاياتنا في الحياة نسلك مسلك صاحبنا الأحمق الذي سقنا مَثَلَه ! نسير في الاتجاه الخطأ ، ونفشل حيث كان يسعنا النجاح بما انفقناه في الفشل من وقت وجهد !

فالفشل ليس الا دليلًا على ان مجهوداً قد بـذل في الطريق الخطأ .. ولا بد للفشل من طاقة نشاط !

هذه حقيقة قلما ندركها على الفور .. فقد اعتدنا ان نرى الفشل نقيضاً للنجاح ، ومن ثم عزونا للفشل نقائض صفات النجاح..

والنجاح يتطلب نشاطاً ، فلا بد اذن ان الفشل يتطلب جموداً.. وهذا حق ، ولكن الجمود ليس معناه افتقاد الجهد .. ودع اي عالم نفساني يخبرك كم يحتاج الرجل الناضج من الجهد ليقاوم الحركة. فثمة كفاح شديد لا بد منه لمغالبة قوى الحياة والحركة بحيث يظل المرء جامداً في مكانه . غاية ما في الأمر ان الكفاح يحدث داخلياً فلا نحس له — على السطح — أثراً ! والجمود البدني ليس دليـلًا

صحيحاً على ان الحياة لا تحترق بداخل الشخص الجامـد .. فحتى الكسول البادي الكسل يحرق وقوداً بينما هو سادر في خواطره..

وعندما يتأتى الفشل نتيجة تكريس الوقت لوسائل قتل الوقت، فهنالك نرى ان طاقة النشاط تنفق في الاتجاه الخطأ . ولكن ثمة وسائل لقتل الوقت خفية غير مستبينة، بل لعلها تبدو على العكس، كأنما هي اعمال شاقة تستنفد مجهوداً كبيراً ، وتستدر من المشاهد الاعجاب والثناء ، فاذا دققت النظر اكتشفت ان هذا المجهود لا يفضي بنا إلى غاية ، وانه يدعنا متعبين ساخطين ، وانه مجهود يبذل فعلًا لاجتلاب الفشل !

فلماذا كان الامر كذلك ؟ ما دام النشاط نفسه خليقاً بان يوصلنا إلى النجاح ، فلماذا نتعثر في غالب الاحيان في بلوغ غاياتنا التي رسمنا لها الخطة واعددنا العـــدة ؟ لماذا لا ننجز إلا القليل ، ونعطل انفسنا عن الوصول إلى اهدافنا بحماقة ؟ لماذا نعتبر انفسنا فلاسفة حين ننتحل لانفسنا اعذاراً عن بدء الرحلة متأخرين ، او بدئها في الطريق الخطأ ، او افتقادنا معالم الطريق نتيجة انسياقنا في الخواطر واحلام اليقظة ؟ لا احد يجد العزاء حقـاً فيما يتقول به من ان عصفوراً في اليد خير من عشرة على الشجرة .. فامثال هذه « الحِكَم » لم تضرب لتقود خطانا في طريق الحياة ! ونحن لا نخدع بهذا التفلسف احداً ، وان قبل الناس اعذارنا ما داموا هم ايضاً على غرارنا !

ويستمع الرجل الناجح إلى هذه الاقاويل فيبسم سـاخراً ، وقد ازداد يقيناً ان النفاق ما برح بخير ! فهو وحده يملك الدليل

على ان الحياة الموجهة اجزى واشهى ثماراً من كل ما عساه يتأتى مع الفشل من ثمار هزيلة ، وان عملاً انجز وخرج الى حيز الوجود لهو افضل وأبقى من جبال شامخة من الاحلام والخواطر ..

وحتى حين نعزي انفسنا عن الفشل ، فأننــــا لا نحس العزاء والراحة حقاً،فنحن في ذات انفسنا لا نؤمن بهذه الحكم والامثال التي نتشدق بها وإن بدت في سمعنا طبيعية الوقع، ومن أمثلتها أن على المرء ان يختار بين النجاح وبين الحياة الممتعة ... كأن النجاح والحياة الهانئة على طرفي نقيض !

بل نحن نوقن بأن الناجحـــين يستمتعون – كما نستمتع – بالشمس الساطعة ، والهواء الطلق ، والحب والتقدير ؛ يستمتعون بهذا اكثر مما يستمتع الفاشلون ، بل يستمتعون ، فوق هذا ، بما يحسون به ويدركونه من انهم اختاروا طريق الحيــاة والنمو ، بدلاً من طريق الموت والفناء !

فلماذا نفشل اذن ? بل لماذا نجتهد في الفشل ?

لأننا الى جانب خضوعنا لأرادات نفسية انشائيــة شتى ، كأرادة الحياة ، وارادة القوة ، نخضع ايضاً لأرادة الفشل ، أو إرادة الموت !

ولعل من الناس من يسمع بهذه « الارادة » للمرة الاولى ! فقد شبعنا سماعاً بإرادة الحياة ، وإرادة القوة ، ولكــن إرادة الفشل من الغموض بحيث قل ان نلحظها وهي تؤتي عملها .. وهي تتخذ اشكالاً فردية شتى تختلف باختلاف النماذج « السيكولوجية » للأفراد.. وهي تدهمنا بغير تحذير ما دمنا لا نرى الفشل إلا طيفاً،

ولا نراه قط حقيقة مجسمة ينبغي ان نواجهها ونغالبها ..

وأدراك أن ثمة ارادة للفشل - أو إرادة للموت سيان - تعمل في نفوسنا ؛ وأن ثمة تياراً هداماً ، مقوضاً يسري في عكس اتجاه قوى الصحة والنمو .. إدراك هذه الحقيقة هو الخطوة الأولى لتحويل الفشل إلى نجاح ..

ولا ينبغي أن نبدأ بإهمال هذا التيار ، فهو عندئذ خليق بأن يزداد استخفاء ، بل ينبغي أن نواجهه حتى نقصيه ..

ففي إمكاننا أن نستعيد جهدنا الموجه إلى الفشل وأن نستغله في تحقيق غاياتنا السليمة ؛ وثمة حقائق سيكولوجية واضحة متى أدركناها أبلغتنا الى نتائج واضحة محددة ، ومن هذه النتائج نستطيع أن نختط خطة نعمل بمقتضاها .. ثمة طريقة بسيطة عملية يسعها ان تحول وجوهنا إلى الاتجاه الصحيح ، وهي الطريقة التي يتبعها كل ناجح ، سواء واعياً أو غير واع .. وهي من البساطة بحيث قد لا يصدق أولئك الميالون إلى تجسيم الأمور أن في ميسورها ان تعينهم وتجديهم . على انني لا احسبهم يمانعون في التجربة ، ما دامت من البساطة كما ذكرت .. ولندع للنتائج الحكم .. فما أحسب وسيلة مقترحة يقال إنها تفضي الى حياة أحفل ، وعمل افضل ، إلا جديرة بالتجربة على أية حال !

كل ما ينبغي أن يتسلح به المرء لأجراء هذه التجربة هو الخيال ، والتضحية - لفترة - بما درج عليه من عادات ريثما يتم عملا واحداً من الأعمال التي يتطلع اليها .. أما في كم من الوقت يتم هذا العمل ، فأمر يختلف من فرد الى آخر ، ويتوقف على طبيعة العمل

نفسه ، وهو يعتمد على الفرد نفسه ، أو يعتمد على التعاون بينه وبين غيره من الناس .. ومهما يكن من امر فسوف تتضح بعض النتائج الاولية تواً ، وهي نتائج ، لعمري ، تثير الدهش.. ولن أحصي لك هذه النتائج الآن ، فسماعك بها كسماعك بمعجزة ، وعسى ان تثير فيك الشك ؛ والشك من العادات التي ينبغي ان تشرع من الآن في « التضحية » بها !

ومرة أخرى أكرر انه وأن بدت النتائج كالمعجزات ، فإن الطريقة نفسها من البساطة والوضوح بمكان عظيم ، وانها لجديرة بالتجربة ، فقد حققت النجاح للمئات ، وفي ميسورها ان تحققه لك.

الفصل الثاني

إرادةُ الفَشل

تناهت الينا من تلامذة شوبنهور ، وفرويد ، ونيتشه وأدلر، عبارات كارادة الحياة، وارادة السيطرة، اصبحت مألوفة متداولة، تشير إلى حوافز تدفع بالمرء إلى الانجاز والنماء ، وتتفق مع تجارب لعلنا جميعاً جربناها .. فقد رأينا اطفالاً يكافحون لفرض شخصياتهم، وفي صبانا كنا نتحين الفرص لاثبات جدارتنا ، وفي اعقاب مرض طويل كنا نحس دبيب الحياة يعود إلى شراييننا ، ثم لا يلبث ان يتدفق كفيض النهر ..

ونحن نعرف ان المرء متى دهمته نوائب الفقر او الحزن او المذلة ، وهي نوائب قد يراها البعض أبغض من الموت واشدقوة، فأنه لا يدفعنا إلى كفاحها الا ارادة الحياة مجردة !

وفضلاً عن ذلك فأننا نخوض تجربة النمو ، ثم نعلم فيما بعد الشيء الكثير عنها .. ننتقل من الطفولة الى المراهقة ، ومن المراهقة إلى البلوغ ، وفي كل مرة ننتقل فيها من طور إلى الذي

يليه نجد ان ميول الطور وأوجه نشاطه تتلاشى لتحل محلها ميول اخرى وأوجه جديدة للنشاط .. فالطبيعة في كل مرة تعد المرء لدوره الجديد في الحياة وتوائم بينه وبين حاجاته الجديدة، وتعد له متعاً جديدة تلهيه عن متع الطور القديم التي لا بد له ان يتخلى عنها..

كل ذلك عرفناه ، ولكن فكرة وجود أرادة اخرى متعارضة مع هذا كله .. ارادة الفشل او ارادة الموت تبدو غريبة عصية على التصديق !

وقد لبثت هذه الفكرة غصة في حلق التحليل النفسي زمناً .. فما خطر ببال احد ان تراود فرداً فكرة العدم او اللاوجود !.. حتى احلام الموت ، والتهديد بالانتحار كانت تؤخذ على انها من قبيل الرغبة في الانتقام : أي رغبة المرء في تسبيب الأسى والحزن لمن اساؤا معاملته ؛ ولكن المرء مع ذلك لا يتصور نفسه منعدماً قط ، وانما هو يتصور نفسه مختفياً او غير منظور وحسب !

وفي خلال الحرب العالمية الاولى ، حلـّل « فرويد » كثيراً من المصابين بصدمة الحرب (Shell Shock) ثم كتب بعد ذلك رسالة يقول فيها انه تبين في بعض احلام مرضاه « رغبة مخلصة » في الموت !

وبرغم ان الرسالة انطوت على طائفة من أحصف آراء فرويد، الا ان الناس أبوا ان يسلموا بوجود تيار يتجه نحو الموت يسري في حياتنا !

ومع ذلك فالموت تجربة حقيقية كالولادة والنمو، واذا كانت الطبيعة تعد المرء لكل طور من اطوار حياته بأن تسدل ستاراً

على رغباته وميوله السابقة وتفتح له آفاقاً جديدة للرغبات والميول، فلماذا يصعب ان نتصور ان الطبيعة تعدنا رويداً للانسحاب من الحياة ومظاهرها جميعاً وهي تجربة ستلم بنا حتماً ?!

لنا أذن ان ننظر إلى ارادة الفشل كحقيقة واقعة !

ولو ان الجمود والنشاط الزائف، والمجهود الذي يبذل سدى، واليأس ..لو ان هذه كلها وجدت في نهاية الحياة ..او حين ينهكنا المرض او يدهمنا الأعياء، او لو انها لم تشل قوانا وحيويتنا ونحن في ذروة القوة والحيوية لما كان هناك مبرر لان نصفها بانها العدو الألد لفاعليتنا وقدرتنا على الانتاج .. ولكنها حين توجد في طور شبابنا ، او في أوج نضجنا ، فانها حينئذ دليل على اختلال في نفسية المرء ، تماماً كما ان النعاس في غير اوان النوم دليل على اختلال في صحته !

ولو اننا نحس بقدمها حين تقدم لهان علينا ان نكافحها .. ولكننا غالباً ما نجد انفسنا في قبضتها دون ان نشتبه في انه قد جد علينا جديد، او ان ما هو حادث ما كان ينبغي له ان يحدث . وقد جرت عادتنا بان نصف الفشل ، والحرمان ، والجبن بانها صفات سلبية ، وبان نشبه اقدامنا على مكافحة الفشل باقدامنا على مكافحة الرياح العاصفة !

وقلّ في شبابنا ان ندرك اعراض الفشل في انفسنا .. انما نعزو عزوفنا عن الشروع في العمل أو المضي فيه إلى جبن طبيعي عن مواجهة الحياة .. ولكن العزوف يستمر ، والزمن يمضي ،

ونستيقظ فجأة لنرى ان ما كنا في شبابنا نعده شيئاً طبيعياً ، اذا هو الآن شيء مختلف : شيء بغيض مخيف !.. او لعلنا كنانلتمس عذراً في موقف عائلي كأشفاقنا من ترك هـذا الفرد او ذاك من افراد العائلة وحيداً عاجزاً ، فاذا الأسرة وقـد كبرت تشتت واصبحنا وحدنا ولم يعد ثمة مجال للنشاط الزائف الذي كنا نبذله في العناية بهذا الفرد من افراد العـائلة او ذاك ، واذا نحن يعترينا الخوف من ان نستدير لنبدأ مشروعاتنا القديمة المهملة ..

او لعلنا نلتمس عذراً آخر هو اشيع الأعذار بين الناس :ذلك ان اكثرنا يتحتم عليه ان يختار بين العمل او التضور جوعاً ،ومن ثم فعذرنا الشائع اننا حين يتعين علينا ان نعمل نخلد الى عمل ليس انسب الاعمال لنا ولسنا انسب الناس له ..

ثم يتزوج الواحد منا فتصبح اعباؤه المالية افدح ، وحاجته إلى العمل اشد ، ومن ثم نتابع العمل الذي نبغضه متعللين بآمال غثة واهية ..

تلك الحاجة الملحة لقبول اول عمل يعرض علينا هي وحدها تكفي تفسيراً للحقيقة الواقعة ، وهي ان قلة قليلة من الناس يقدر لها ان تحقق اهدافها الحقيقية في الحياة ! وغالباً ما نبدأجميعاً بتصميم قوي على ألا ندع اهدافنا تغيب عن نواظرنا وان اضطررنا الى عمل — اي عمل — لكسب قوتنا .. اننا نزمـــع ان نعلق ابصارنا بآمالنا ومطامحنا ، وان نسعى لتحقيقها بقدر ما يسمح الظرف ، في ايام العطلات، او نهايات الأسبوع، او بعد الفراغ من العمل.. ولكن الوقت الطويل الذي يستغرق النهار وجزءاً من المسـاء

والذي نقضيه في العمل الرتيب يصيبنا ولاشك بالأرهاق ؛ والرجل الذي يسعه بعد ذلك أن يتابع العمل وهو يرى الناس كلها تلهو حين يعمل ، انما هو شيء نادر الوجود ، بل أن الرجل الذي يبقى له مطمح في ان ينجح في هدفه الذي خَصّص للعمل من اجله وقتاً اضافياً شيء اندر !

وهكذا ، دون ان ندرك اونعي، نجد انفسنا وقد اكتسَحَنا تيار ارادة الفشل !.. نعم اننا نمضي ونتحرك ، ولكننا لا نحس لحركتنا اثراً !

واغلب الناس يفلحون في تقنيع فشلهم وحجبه عن المجموع ؛ بل هم يفلحون اكثر في حجبه عن انفسهم !.. فليس من الصعب ان نتجاهل ما نصنعه وننجزه هو دون ما يمكن ان نصنعه وننجزه بكثير ؛ وانه بالقياس الى ما قدّرنا ان نصنعه في مرحلة سابقة من مراحل العمر شيء تافه حقاً ، وانه لا يعـــدو ان يكون جزءاً يسيراً مما حلمنا بصنعه وانجازه ! ومن اسباب سهولة خداع انفسنا اننا نعقد – في مرحلة من مراحل العمر – اتفاقاً صامتاً بيننا وبين معارفنا واصدقائنا مؤداه شيء كهذا : « لا تصارحوني بفشلي ولا اصارحكم بفشلكم » !

ويظل هذا الاتفاق ساريا في الشباب ، وفي منتصف العمر .. فما زالت هناك فسحة من الوقت بعد لأن نصيب اهدافنا إن استطعنا .. ثم بعد ذلك بقليل يصبح الاتفاق لاغياً ! ونبدأ نحن بإلغائه اذ نسلم صراحة بفشلنا ، وبأننا لم نحقق من مطامح شبابنا ما كنا نرجو تحقيقه !. ففيما بعد الخمسين نأخذ الأمر مأخذ السخرية

المريرة ، وربما مأخذ التعزي حين نرى قلة قليـلة من رفاق الصبا هم الذين وسعهم ان يحققوا اهدافهم .. وبديهي انه يندر ان يسأل احد شخصاً جاوز الخمسين قائلا : « لم لا نبدأ الآن ؟ » هذا برغم ان طائفة من روائع الأعمال في العالم قد ابدعها اشخاص جاوزوا هذه السن !.

وهكذا نعبر طريق الحياة دون ان نحقق ما حلمنا بتحقيقه ، ودون ان نستكشف في انفسنا ما نحن خليقون بتحقيقه ، ودون ان نستخدم الا جزءاً يسيراً من مقدراتنـــا سواء الفطرية او المكتسبة ..

فاذا كنا قد اصبنا قدراً من الرفاهية ، وقدراً من اعجـاب الناس واحترامهم ، وقدراً من السلطة ، وقـــدراً من الحب ، حسبنا حينئذ أننا خرجنا من الحياة بصفقة لا بأس بها ! بل ربما غبطنا أنفسنا على دهائنا دون ان ندرك كم كنا مخدوعين ، ودون ان نعي اننا قنعنا بما هو بديل من الموت ، بدلا من ثمرات الحياة!

ولو ان اللعبة التي نلعبها مع انفسنا ومع بعضنا البعض لم تنته إلى نهاية ولم نفطن الى انها في الحق لعبة كالعاب الأطفال ، لأوصلتنا ارادة الفشل إلى الحضيض .. ولكن اللعبة تنكشف في اغلب الأحيان ، وهنالك نجد انفسنا فجأة نتساءل : « لماذا نجري ونهرول ولا نصل إلى شي كما كنا نفعل ونحن اطفال نجري ونقفز حتى ينـال منا التعب ولا نصيب شيئاً ؟ وماذا دهى حياتنا التي اردنا ان نحياهـا ، وعلقنا عليها الآمال ، وها نحن هؤلاء لا نفعل شيئاً او نفعل مالا يكسبنا أكثر من كسرة الخبز ؟!

وأحياناً نكتفي بالتساؤل وندع الأمر يمر عند هذا الحد، ثم ننساه لفترة طويلة وقد لا نذكره مرة اخرى اطلاقاً .. ولكن بعضنا لا ينسى قط .. فاذا عاد الى اللعبة مرة أخرى استحالت الى كابوس مزعج .. ويصبح شغله الشاغل كيف يرتد مرة اخرى الى حياته الحقة .. واحياناً مايشتط الكابوس في ملاحقتنا : نهرب منه في منعطف تلو منعطف حاسبين أن الخلاص هناك ، ولكن لنجد انفسنا نرتد إلى مكان اللعبة مرة اخرى . !

ولكن الفرار من الكابوس ، مع ذلك ، ممكن .. كيف ؟ بأن نسلم بأنه ربما كانت هناك حقاً ارادة تنزع بنا نحو الفشل ، وأننا ربما كنا ضحاياها ؟

الفصل الثالث

ضحايا إرادة الفشل

لو ان إرادة الفشل تعلن عن وجودها باعراض محددة كاعراض الحصبة أو الانفلونزا ، مثلاً ، فربما كانت قد قضي عليها أو ابتكر سلاح لمغالبتها ... ولكن اعراضها للأسف ، كثيرة منوعة !

ولو انك انتزعت شاباً مراحاً لا همّ له الا اللهو ، من حلبة الرقص وقدمته لكهل مرسل اللحية لا همّ له الا التأمل والتفلسف ، وقلت له : « اريدك ان تتعرف على هذا الرجل ، فثمة وجه شبه كبير بينكما » ، فلعل الناس ان تظن بك الجنون ؛ ولكنك ربما كنت مصيباً ! فالفيلسوف المتأمل المنطوي ، والصبي اللاهي المنبسط ، انما تدفعهما دوافع واحدة : كل منهما يسعى الى الفشل !

قال « ماركوس أوريليوس » في « تأملاته » (١) محذراً : « لا تتصرف كما لو كنت ستعيش الف سنة » .. ومع ذلك فأولئك الواقعون في قبضة ارادة الفشل يتصرفون كما لو كانوا

(١) Marcus Aurelius , « Meditations »

سيعمرون الف سنة ! وسواء كانوا يلهون او يتأملون فهم انما ينفقون أغلى ساعات العمر كما لو كان منها معين لا ينفد !

ولما كانت ثمة طرق عديدة للفشل في مثل عدد أنواع الناس ، لهذا شق علينا ان نرى في الناس وفي انفسنا إرادة الفشل.. واليك بضعة من الامثلة التي لا حصر لها من الطرق التي نتصرف بها كما لو كان العمر سيمتد بنا الف سنة .

ثمـة اشخاص يقضون في النوم ما بين ساعتين وست ساعات اكثر مما يلزم لراحتهم ولصحتهم..هؤلاء ليسوا كسالى، بطبيعتهم كما يصفهم الناس ، وانما نومهم الزائد فعل قهري تفرضه عليهم إرادة الفشل ! انهم اولئك الذين يعتكر مزاجهم اذا تأخر موعد نومهم المبكر ، ويحصون كل صباح في لهفة وقلق الساعات التي قضوها نياماً ، ولا يتعزون فيما تخلل فترة نومهم من سهد ! وحين يعمد الرجل الناضج الى جعل النوم خلال اليوم مرة او مرتين شيئاً « روتينياً » فالتشخيص عندئذ واضح هين !

وهناك ضمن الفاشلين المقنعين، اولئك « الايقاظ النيام » الذين يدعون أوجه النشاط تمر بهم دون ان يمدوا يداً للاشتراك فيها ، أو ينغمسون فيما يضيع الوقت على غير فائـدة، فلا يصيبون من النشاط البنائي الا القليل الذي لا يذكر .

وهناك المكتفون بأنفسهم المستغنون عن النـاس الذين لا يلعبون الا دوراً مفرداً...والدافنون انفسهم بين طيات الكتب لا يقيمون رؤوسهم عنها ؛ والمنغمسون في التسلي بحل الألغاز وفك رموز «الكلمات المتقاطعة» فثمة خط واه دقيق بين الادمان

على الترفيه وبين الافعال القهرية المتسلطة التي تريد ان تنأى بعيداً عن العمل الجاد المنتج !

ولعل اسهل من نرى فيهم إرادة الفشل متجلية ، المدمنون على الخمر ! ويسعني ان اكتب مجلداً عنهم ، ولكن ثمة مجلدات عدة قد سبقت الى الصدور ! فحين يتصل الشراب حتى يجلب النوم في اليقظة ، بل أسوأ من ذلك ، الموت في الحياة ، فارادة الفشل عندئذ ظاهرة لكل من له عينان .. ولكن ثمة آلافاً من غير المدمنين لا يبدون من أعراض ارادة الفشل سوى وجهاً باهتاً لا يستبين : اولئك الذين يحتسون الخمر وهم يعلمون انهم سيستيقظون في اسوأ حالاتهم في صباح اليوم التالي ، واولئك الذين يشربون الخمر وهم يعلمون انها تضر بصحتهم ضرراً ملحوظاً او غير ملحوظ. فكل من عرف هذه العواقب عن تجربة ، ومع ذلك اقبل على الخمر ، فهو انما يفعل ذلك عن رغبة في ايذاء نفسه ، على الاقل ، الى الحد الذي يعلم ان الخمر ستنتهي به واليه ! بل إذا كانت القهوة تزعجك ، او كان اللبن عسر الهضم عليك ، ومع ذلك تواصل شربها فلعلك تفلت من اللوم الذي يوجه الى شاربي الخمر ، ولكنك في الحق تنتمي الى الطبقة نفسها التي ينتمون اليها !.. وقل القول نفسه عن الطعام الذي يسبب منه الضرر ويقبل المرء مع ذلك على التهامه !..

والذين يتخذون الفشل شغلاً شاغلاً يفعلون ذلك بوسائل لا تقع تحت حصر .. فالمدمنون على مشاهدة السينما أو المسرح ، لا تطيب لهم ليلة تخلو من اللهو والرقص ، ولا يعدون من عمرهم

يوماً يخلو من حفلة او دعوة .. وكلا ، لست انتقد الترفيه والاسترخاء بعد فترة من النشاط الايجابي البنّاء ، وانما اقصد اولئك الذين ينحصر نشاطهم كله في اللهو والترفيه ..

ثم هناك الفاشلون « نصف نصف » الذين يشغلون فراغهم بأوجه نشاط هزيلة ، بدلاً من تلك التي هم اكفاء للقيام بها .. ومهما يكن من أمر ، فان الامانة المطلقة مع النفس كفيلة بأن تبين لك هل النشاط الرتيب الذي تزاوله يدفعك الى أعلى ام الى اسفل ؛ الى النجاح ام الى الفشل .. فاذا كان ما تزاوله نشاطاً « روتينياً » او آلياً لا يستلزم من الأهتمام الواعي قدراً ملحوظاً، فالأرجح أنه لا يندرج في زمرة النشاط الأيجابي أو الأنشائي !

وقد يسهل علينا أن نلحظ ميل بعض الناس الى الانغماس في الجدل العقيم ، أو السفسطة العاقر ، او العبارات الجوفاء التي لا تهدف لشيء ، ولا يسهل علينا أن نلحظ ميلنا نحن أنفسنا احياناً إلى ذلك !.. ثم اذا تأملنا أنفسنا يوماً أدهشنا ان نلحظ اننا نكرر لأصدقائنا ما نقول يوماً بعد يوم : الموضوعات نفسها ندور حولها في حلقة مقفلة .. الآراء نفسها نرددها كالآلة الصماء .. الحديث الذي لا يستهدف هدفاً نكرره يوماً بعد يوم.. الأمثلة نفسها نسوقها تدليلاً على الآراء نفسها ..

فتلك وسيلة أخرى من الوسائل التي تنم بها ارادة الفشل عن وجودها بشكل يلابسه الغموض .

وثمة وسيلة اكثر غموضاً تدل بها ارادة الفشل على وجودها .. خذ مثلاً اولئك الذين يضطلعون ، عامدين ، بأعمال لا تستلزم الا

جانباً من مقدراتهم ومواهبهم ، ثم يشغلون أنفسهم إلى حـــد الانهماك بالتفاصيل التافهة !.. أو أولئـك الذين يفنون أعمارهم دائرين في فلك غيرهم ؛ واكثر هـــذه الفئة من الامهات اللواتي يضيعن أعمارهن منشغلات ببناتهن او ابنائهن وان بلغ هؤلاء النضج. أو من البنات والأبنـــاء الذين يضيعون أعمارهم منشغلين بأمهاتهم وآبائهم ، دون ان يحقق هؤلاء وهؤلاء في الحياة شيئاً مذكوراً.. أو أولئك الذين ينشغلون بدراسة لاتفرغ ولا تنتهي فلا هي تجدي الناس شيئاً ، ولا هي تجديهم هم أنفسهم شيئاً .. أعرف طالباً ظل منذ دخوله السنة الاولى في الجامعة يعـــد بحثاً عن سيامي نصف مشهور ،حتى تخرج في الجامعة دون أن يرى حرف مما كتب النور!

ثم أولئك اللطاف الخفاف ، الظراف الذين يحترفون الحديث اللبق ، والتصرف الرشيق ، والهندام الأنيق .. وليس في ذلك ما يستحق النقـد الا ان يكون همهم كله منحصراً في الاستئثار بالاعجاب والظفر بكلمات الاستحسان.. ولا شيء اكثر من هذا! فتصرفهم عنـــدئذ مداراة للنقص ، وخـــداع للنفس ، في فيض الأعجاب الذي يغمرهم به الناس ، والغرباء عنهم خاصة !

هذه قلة وحسب من الوسائل التي لاتحصى ، والتي تنم بهاارادة الفشل عن نفسها ، وتمتاز كلها بأنها تنطوي على نشاط يبدو انـه لا هدف له ولا غاية ، ولكن الواقع ان وراء هـــذا النشاط غير الهادف ، هدف دفين !

ولعل أظهر هذه الأهداف الدفينة هو أن نخدع العالم ونحمله على الاعتقاد باننا نبذل في الحياة أقصى ما في طوقنا ! وطبيعي أنه

ليس في وسع أحد أن يطلب منا أكثر مما في وسعنا !.. ألسنا نبدو أمام الناس منشغلين بالعمل مزدحمين به ؟.. ألا نبدو كما لو لم يكن في وسعنا أن نفعل المزيد ؟.. ألا نبدو كما لو لم يعد في وقتنا دقيقة من الفراغ ؟ تلك أسئلة لا تطلعنا على أجوبتها الصحيحة سوى الأمانة المطلقة مع أنفسنا !.. ثم يمضي الوقت ولا نعود نهتم بأحكام خداع الناس .. فأذا لم نكن نفعل ما نحن أهل لنفعله ، واذا لم نكن نسهم بنصيبنا في حركة تقدم العالم، باذلين ما نحن جديرين ببذله حقاً ، فسوف نسمع صوت التعاسة يرن في أعماق أنفسنا ، وسوف يعلو هذا الصوت ، مع الزمن ، حتى لا يعود في الوسع تجاهله !

أن ضحايا الفشل من اللاهين ، أو العاملين في غير اماكنهم، او المندمجين في نشاط عقيم ، يفلحون حقاً في شغل كل دقيقة من اوقاتهم بما لا طائل وراءه.. ويفلحون اكثر في أحكام خداع الناس وأيهامهم بأنه ليس في الأمكان أحسن مما كان ، ولكنهم إن أحسنوا رؤية أنفسهم ألفوا أنفسهم أشبه بالبخيل الذى اعوزه جمع المال فراح يجمع الخرق والقصاصات ، والنفايات !.. انهم يجمعون ما لا طائل وراءه من الاحساسات ، والتجارب ، والعواطف ، ويقضون في ذلك العمر ، على قصره !

ومهما تتنوع الأهداف الدفينة التي تكمن وراء نشاطهم غير الهادف ، فثمة هدف واضح وان استقر في الأعماق، ذلك هو ملء حياتهم بأوجه من النشاط الثانوي او البديل عن النشاط الحقيقي ، بحيث لا يعود لديهم وقت يزاولون العمل الذي هم أخلق الناس بمزاولته ، بما ركبته الطبيعة فيهم من ميول ومواهب ومقدرات. الهدف أذن هو الفشل !

الفصل الرابع

ثمار الفشل

برغم انه قد يبدو سخيفاً ان يدبر المرء مؤامرة - ولو غير واعية - للوقوع بين براثن الفشل ، فان الملاحظ انه ليس ثمة شخص في كل مائة لا يعطل نفسه عامداً ويصيب نفسه ، متعمداً ، بالعجز !.. ولكي ندرك الاسباب الداعية لذلك ، أفردنا هذا الفصل ، لنناقش « ثمار » الفشل !

لقد عودنا الاهتمام المتزايد بكافة فروع علم النفس أن نقبل الفكرة ، مهما تبدو في اول الأمر مضحكة؛ وعرفنا من مطالعاتنا فيه اننا منهمكون معظم الوقت في الاوهام والاحلام .. إننا نحلم سواء واعين او غير واعين ، ايقاظاً او نياماً ، بحالة نكون فيها اسعد مما نحن في حقيقة الامر .. وبين الحين والآخر تطفر فكرة طفلية عن السعادة تصيب سيرنا في الحياة بالاضطراب او خواطرنا بالبلبلة ! وقد يتمثل الحلم في حياة رغدة خاملة ، كما لو كان العقل الباطن قد صمم على ألا يخرجنا من الحماية التي كنا

نجدها في عهد الطفولة ، حيث الرغبـــات مجابة ، وحيث الدفء والحب والطعام يغدق علينا إغداقاً. وقد كتب أيمرسون ،ونحن بعد لا نعرف ولا نسمع شيئاً عن « التثبيتات » و «النارسيسية» كتب يقول : « لا نعتقد ان هناك قوة « اليوم » في وسعها ان تنافس او تفوق « الأمس » الجميل !.. إننا نتمهل بـين اطلال خيمتنا القديمة ، حيث نعمنا زمناًبالطعام والمأوى » تلك هي الحال معنا جميعاً ، ولكنها اقل اتضاحاً في السعداء والناجحين ..

وفي احيان اخرى ، لفرط العجب ، تنصب الاحـــلام على النجاح . فالرجل الوادع ينقلب في خيـاله « نابليون » ، والمرأة المستضعفة تنقلب شعلة متأججة .. فاذا لم تتدخل الحقيقـة لتزعج هذا الحلم ، فقد يسعد الحالم بانغماسه في أوهامه اللذيذة ، اكثر مما يسعد لو ألفى نفسه في مركز يمكنه من تحقيق جانب من حلمه ! مثل هذا الحلم ، هو في حد ذاته ، تعويض عن حياة « روتينية » جامدة ، او عن حياة مملة خالية من الاحداث ؛ ولما كان العالم على ما هو عليه ، فان على الحالم ان يحيا ولو جانبـاً من الوقت ، في دنيا الحقائق الواقعة .. فالارض التي نعيش عليهـا ليست ارض الاحلام : فالسماء لا تمطر طعاماً ، ولا الاشجار تساقط ثمارها في افواهنا .. ومهما يكن الحلم الذي نغرق فيه جميلًا أخّاذاً ، فلا مناص لنا من ان نستيقظ منه أحياناً لنكافح في وجه ظروف الحياة الواقعية ..

أما مدمن الأحلام فلا يكافح ألا بقدر الحاجة، ولا شيء اكثر من ذلك ، أنه يحصل على قوته بجهد تعوزه الحماسة والحرارة ..

فاذا انقضى عمل يومه ارتد إلى أحلامه ، سواء أدرك ذلك أم لم يدركه .. وهو لا يفلح إلا في شيء واحد : ذلك أن يكسب في كل يوم ساعات من الفراغ يقضيها في تبديد حياته سدى .. ولكن حلمه جميل سعيد ، وهو تعويض عن فشله في كل ميدان من ميادين الحياة ، ومن ثم فهو يتابعه ويحرص عليه.. ولما كانت السعادة هي الهدف الحقيقي ، فانه لا يستطيع ان يدرك انتحقيق قدر من النجاح في دنيا الحقيقة يتيح من السعادة أكثر مما تتيحه سنوات يقضيها في الأحلام ولا شيء سواها !

وخليق بنا ان نذكر ان ثمار الفشل ثمار حقيقية لها وجود ، فذاك يسهل علينا مهمة مواجهتها كشيء له وجود فعلاً ، وليس مجرد حلم في الذهن او في الخاطر ..

فمثلاً اذا اجتهد انسان في شيء بالقدر الذي يسمح له بان يعتذر بانه « حاول » واخفق ، ففي وسعه عندئذ ان يكف يديه آمنا ما بقي له من عمر .. في ميسوره حينئذ ان يعتذر بانه « حاول » ولكنه وجد انه تنقصه الصفات التي تحقق النجاح! ويبدو ما نسمعه من مثل هذا الرجل صادقاً مؤثراً ، وليس ثمة من سبيل لأن ندلل على ان قوله هذا خلو من الحقيقة ! واذن ، فقد اعفى المعتذر بهذا العذر نفسه من مواصلة بذل الجهد بقية حياته !.. فاذا كنت كهذا الرجل ، فانك تنظر إلى كفاح الآخرين بعين نصف مهتمة ونصف حاسدة ، تستمتع بثمار نجاحهم ، ولكن استمتاعك يكون اوفر برأى الفاشلين الذين يتخذون مكانهم إلى جوارك ينظرون كما تنظر !

يقول لك اللاوعي : « لماذا لا تكف وتظل تحس ما بقي لك من عمر انك إن حاولت مرة اخرى اصبت ما تصبو إليه ؟ » .. وتتحول عندئذ إلى ناقد لاذع يصعب أرضاؤه، ويسعه أن يشير إلى ارفع المثل والمستويات التي ما يزال يسعى إليها الساعون ، وقد علا ثيابهم تراب الطريق ، مستويات من الرفعة ومن بعد المنال بحيث تحس ان القصور عن بلوغها اكرم من نجاح سهل هين !.. ويصبح المجد الذي كنت خليقاً ببلوغه ، والثراء الذي كنت جديراً بتحقيقه ، والروائع التي كنت قميناً بابداعها ، تصبح هذه كلها في احلامك وخواطرك ، وفي اعين الناس الذين ينظرون للامور نظرتك ، اهم بكثير من النجاح في حد ذاته .

أو قد تصبح ساعداً للعاملين المجدين، ولعل هذا أخف صنوف الفشل أو انجح أنواعه ..

ولكن اذكر في كل حالة من هذه، انك على الأقل قد اجتنبت الكفاح ، والألم والاذلال التي عساها تتأتى في ركاب الجهد المبذول .. وتفاديت ان يصبح الشيء الذي كدحت من اجله متى تحقق محل ازدراء أو سوء فهم ، وتحاشيت حسد الناس الذين يتعين عليك، لكي تنجح، ان تتفوق عليهم وتتجاوزهم ، وتجنبت النقد والعداوة! لن ينالك عندئذ شر الحاسدين لكل نجاح مهما كان ضئيلاً ؛ ولن يتحتم عليك ان تحاج الحاقدين وتعزز جدالك اياهم بالآراء والاسانيد ! أو ابعد من هذا واعمق ، لن يتاح لك ان ترى الفارق بين ما امكنك ان تصنع وبين ما أملت في ان تصنع ، وهو فارق موجود دائماً، لعل حكمته ان يحتفظ الناجح بفضيلة

التواضع ..

وللاحظة هذه العوامل الباعثــة على الألم والضيق التي تجنبناها بفشلنا اهميــة كبرى ؛ فانها تلقي ضوءاً غامراً حين نتساءل : لماذا اخترنا ان نفشل ، ولماذا فضلنا الفشل على النجاح !.. واذن فحين تفشل ،فأنت تنعم عندئذ بثمرات حقيقية تتمثل في تفاديك التعب والعناء وثبوط العزيمة ، واعتكار المزاج التي يلاقيها كل ساع مجد إذا عاكسته الظروف وواجهتـــه الصعاب ! فاذا سمعت بنجاح شخص في الميدان الذي اخترته لنفسك ، عزيت نفسك قائلًا انك لو صحّت عزيمتك على المحاولة لتفوقت عليه واكتسحته !

أو لعل العزاء عن الفشل يكون بالاحتجاج بأنك لا تريد ان تؤذي من تحب بنجاحك ! وهذه هي اشيع ثمار الفشل بين النساء خاصة ، أي بين ابناء المشاهير أو بين تلاميذ الاساتذة الجهابذة !

على ان الحقيقة ان اولئك الذين يخشون ايذاء الاحباء يتخذون هذا العــذر لشيء لا يقدمون عليه قط ! انهم لا يحاولون ابداً ، وانما يكتفون بالتشرف بهـذا الاعتذار المطلي ، وينسون سماحة الحب وكرمه !

ومع الفشل يفلت المرء من الهمسات،والشائعات والتقولات، والتجريحات التي تلاحق كل نجاح . فاذا اشتط المرء فيخوف هذه الهمسات والتجريحات فهو عندئذ مريض النفس .. ولكن هــذا الخوف ماثل وراء حالات لا تحصى من القعود عن بذل الجهد في سبيل النجاح. وما برح اللامعون هدفاً لتجريح المغمورين؛فأما القلة القليلة التي يهمــك رأيها فستعرف الحقيقــة ، واما من عداهم ، على

كثرتهم ، فلا اهمية لهم ! ومع ذلك ، فالكثيرون ينسحبون من الحياة النشطة ، لا ليندمجوا في حياة اعمق ، وانما ليجتنبوا وحسب اقاويل الناس وحب استطلاعهم !

ثم انك متى فشلت تحولت رفيقاً اطيب عشرة مما لو كنت ناجحاً ، فالذين يبلغون النجاح دائبو العمل ، ليس في وقتهم متسع للهو او للصحبة ، وحتى في الأوقات التي ينتزعونها للترفيه يغدون مشتغلين ولو بجانب من جوانب عملهم ! ولا يعول على الناجح كثيراً في صحبة او في حفلة ، او في غزوة للهو ، ما دام ليس في عقله الباطن ما يدفعه الى الفرار من واقع الحياة .. وهو يحتفظ بظرفه وسحره ، وعاطفته لأولئك المرتبطة حياتهم به برباط وثيق ، وهو بين من ليس به صلة وثيقة اقرب الى ان يبدو بارداً جامداً .. وما دمت لا تطيق فكرة وجود انسان على هذه الأرض يسعه أن ينظر إليك نظرة عداوة اوسخرية ، فانك ستستمسك باهداب الفشل استمساكا !

ولعله يجدر بي هنا ان اسوق ثلاثة امثلة لثلاث من ضحايا ارادة الفشل . وعسى ان يرى الناظر لأول وهلة في كل من هذه الأمثلة حياة حافلة بالنشاط الظاهر البين ! على انه متى دقق النظر ، وقدر هؤلاء الضحايا تقديراً شخصياً ، وحكم عليهم من امكانياتهم ومقدراتهم الفردية ، وجد الفشل هناك ! فكل من هؤلاء الثلاثة يمتلك امكانيات ومقدرات كفيلة بأن تبلغه ذروة السعادة والنجاح ، ولكنه هدر طاقته ونشاطه ، بدلا من ذلك ، في قهر اهدافه ونواياه ! .. أما الاولى – وهي سيدة – فقد أدركت خطأها

وصحته ؛ وأما الثاني ، فقد مات دون أن يدري حقيقة مواهبه المضيعة ؛ وهو أبعد ما يكون عن النجاح ، وأن كان اسمه ذائعاً معروفا !

مثلنا الأول لسيدة ترملت وهي في ميعة الصبا .. كانت تنحدر من أسرة عرفت بحب العلم والدرس ، وقد كانت طالبة نابهة في الجامعة ،واعتزمت بالقليل من المال الذي تركه لها زوجها لتعول نفسها وطفلتها ، ان تعود الى الجامعـة لتدرس من اجل درجة الأستاذية ، ثم الدكتوراه ،استعداداً للعمل كمدرسـة ، والواقع انها (كما عرفت لفرط دهشتها فيما بعد حينما احدقت بها الصعـاب من كل ناحية فاضطرت لطلب النصح) ، إنما أرادت العودة الى الجامعة لتعيش طفلة في دنيا الناضجين ؛ ومن ثم أطالت، متعمدة ، مدة الدراسة الى اطول أمد ممكن ، فلما حصلت على « الدكتوراه » بذلت ما لاح لعينيها ولأعين اصدقائها انه مجهود صادق للوصول إلى مركز لائق .. ولكنها في الحق لم تفلح الا في اجتلاب نفور من كانوا خلقاء بأن يصبحوا رؤساءها ، بما كانت تبديه من آراء غريبة مبتكرة في الاقتصاد! ولم يكن لآرائها تلك صلة بالمادة التي ستدرسها ، ولم يكن قبول هذه الآراء او رفضها ليغير قدر حبة من العمل الذي دعيت لأدائه ، ولكنها اثارت النفور اينما ذهبت بجدالها الصاخب حول تلك الآراء، الأمر الذي كان ينفر منها أولئك الذين يستخدمونها !

وتنقلت من عمل إلى آخر، لا تمكث في كل منها اكثر من العام الذي ينص عليه العقد ! وكانت مدرسة ممتازة خليقة بان تكون

شيئاً مذكوراً ، ولكنها لم تكن قط تسعى مخلصة لان تمكث في
مكان واحد أمداً أطول !.. وراحت تنحدر من الكليات إلى
المدارس الأقل درجة فالأقل درجة ، وأذ هي في انحدارهــا
انشأت لنفسها فلسفة في الحياة لاءمت بها بين نفسها وبين انحدارها
المنتظم ! كانت تقول إننا نعيش عيشة باذخة لا داعي لها ، نعلق
فيها اهتماماً كبيراً على الملبس الطيب ، والمأكل الطيب ، والراحة
الناعمة ! والى ان بلغت اخيراً المركز الذي سمح لهـا باستئجار
شقة أنيقة في حي راق، وتحطم عنصر من عناصر فلسفتها ، ولكن
سرعان ما حل محله عنصر آخر تمثل في عزوفها عن دعوة النـاس
لزيارتها !.. وازدادت وحدة ، وازدادت شذوذاً ، وازدادت
نار حماستها الزائفة تأججاً !

على انه كان من حسن حظها ان كبرت طفلتها فأصبحت فتاة،
لماحة ذكية ، جذابة ، لم تطبع فيها فلسفة امها الزائفة اثراً ، بل
كان لها اثر عكسي !.. فقـد ساء الفتاة ان تعيش وفقاً لمبادىء
امها في صرف الاهتمام عن المأكل والملبس ! فلمـا دخلت دور
المراهقة بدأت تكافح من اجل حياة أليق .. وتطورت الامور
حتى بلغت حداً تعين فيه على الأم ، اما ان تعير اعتراضات فتاتها
أذناً صاغيـة ، او تفقدها !.. وتبددت سدى جهودها لاصلاح
مركزها ، وتصحيح نظراتها للأمور ، فقد مضت ترتدي الخشن
من الثياب ، ومضت تتعلق بالمنصب الضئيل الذي لا يمنحهـا إلا
مرتباً ضئيلاً برغم علمها وخبرتها !..

فلما أحست بالخطر محدق بها سعت لاستشارة طبيب نفسي ،

وهناك اكتشفت انها انما كانت توجه نشاطها كله ، وطاقتها كلها لاجتلاب الفشل ! ففي غير وعي منها ثارت على اضطرارها للعمل ! كانت تريد اما ان تظل طفلة او تظل زوجة مدللة !.. وكشف لها الطبيب ان تصرفاتها إنما كانت تستهدف هدفين : الاول ان تجعل من الصعب عليها البقاء في العمل ، والثاني ان تلفت إليها نظر الرجال . ولما كان يصعب عليها ان تصارح نفسها بأنها تريد في الواقع اقتناص زوج ، فقد اتخذت لذلك اسلوباً ، هو في الحقيقة يعادل الرقة في لفت الانظار وإن بدا نقيضاً لها ، ذلك هو الدأب على الجدل والشجار !.. ووسعها بعد ان عرفت ما خفيَ لها من نفسها ان تصحح مركزها في الحياة ، وإن اقتضاها ذلك جهداً ، ولكنها حققته واصابت النجاح ..

وفي الحالة الثانية كان الفشل من ذلك النوع الذي لا يكتفي الناس بالنظر اليه في ابتسامة رقيقة وحسب ، بل ينظرون إليه غالباً على انه ـ بطريقة غامضة ـ انبل واجمل من النجاح ! صاحبه رجل متزن ، يتمتع بعقل طيب ، ولكنه مع ذلك افتقد النظر الثاقب النافذ .

عاش ومات في مسقط رأسه . وهو بلد صناعي صغير .. وكانت مطالعاته كلها تنصب على الرحلات والمغامرات ، وكان حديثه كله ينصب على الأماكن والبلاد التي لم يرها .. وليس وجه الأمر انه لم تتح له فرصة ، بل لقد جاءته الفرصة ، وحاولت ان تستدرجه الى العمل والنشاط .. كان يدير فرعاً لمؤسسة تجارية كبيرة ، وكان ناجحاً في عمله بحيث أغرى النجاح مؤسسة تجارية

اخرى في مدينـــة كبرى على ان تعرض عليه منصب الادار بمرتب افضل ، وقبل العرض في فرح واغتباط ،ولكنه ما لبثه ان ارسل الى المؤسسة رسالة يقول فيها انه بعد اعادة النظر يخشى الا يستطيع ملء المنصب الجديد الكبير !

لقد تغلب الجبن آخر الأمر ! وفي السنوات القليلة التالية ظل يحطم كل اقتراح ، بل كل وسيلة لتحسين مركزه ، مبديـــاً الخوف ، في كل مرة ، من الاقدام على تجربة الاقتراح الجديد ، أو الوسيلة الجديدة ! وبعد ذلك بقليل كان قد اصبح من التحفظ والجمود بحيث احالته المؤسسة الى المعاش واصبح منذ ذلك الحين، فيلسوف البلد الصغير ، المدلل الأثير !

وقد رثاه عضو في مجلس الشيوخ حـين مات ، وثقل المصاب فيه على اهل البلدة جميعاً حتى عز عليهم العزاء .. وتكتمل الصورة الحزينة ، إذا عرفنا ان زوجته كانت قد سبقته إلى عالم البقاء قبل عشر سنوات وقد هد كيانها التعب والنصب!.. وان احد ولديه لم يتعد المرحـلة الأولى في الدراسة ، برغم انه ، كأبيه ، يتمتع بعقل طيب ، وان ابنه الثاني اضطر إلى العمل ليكمل دراسته في الجامعة ، وبهذا كتب عليه ان يظل موزع الطاقة والنشاط؛وان ابنته تزوجت على غير حب فراراً من بيت ليس فيه ما هو متوفر في سائر البيوت من وسائل الراحة والرفاهية .

ودعنا هنا نوضح امراً مهماً : ذلك ان الزعم بأن النجاح الامين ليس دائماً مثار زهو ، انما هو زعم خاطىء .. وكثيراً ما نسمع ، او كثيراً ما اريد بنا ان نعتقد بان النجاح ليس دائماً هو كل شيء !

اما ان يكون هناك افضل من تحقيق ما امل المرء في تحقيقه ، ونعم في مقابل ذلك بجزاء قد يتمثل حيناً في رضا النـاس عنه ، وحيناً في احساسه بأنه اسدى للدنيا يداً وأسهم في جعلها ارغـد وألين ، وحيناً آخر في المال او الثراء في مقابل ما اسداه من خدمة للدنيا وللناس ؛ اقول اما ان يكون هناك ما هو افضل ، واما ان يكون هذا النجاح لا يستحق الزهو دائماً ، فهذا تفلسف لا يغني من شيء !

وفي ذلك يقول « وليم ارنست هوكنج » في كتـــابه القيم « الطبيعة الإنسانيـة تصنع من جديد » (١) « لو ان امتلاك ثمار الأرض جميعاً هو المركز الطبيعي المقدر لإنسان إن يبلغه ، فلماذا يعرف المرء ، وقد بلغ هذا المركز وأبلى في سبيله خير البلاء ، مظهراً مقدرة فنية وموهبة رفيعة ؛ لماذا يعزف عن تقبل جزاء بلائه ، ما دام قد نجح وأفلح ؟ »

والمثل الثالث لرجل لو كشفت عن اسمه لعرفه الاكثرون ؛ ولكنه برغم ذلك مثل على ارادة الفشل وكيف تعمل ؟. هو كاتب ينحدر من صلب كاتب ؛ وقد حالفه السعد في البداية حتى انه لم يدر شيئاً عن الكفاح الذي هو مقدمـة لنجاح اكثر الكتاب .. وبرغم ذلك ، فهو في الوقت نفسه يعيش في خوف مقيم من السقوط ، بل يعيش ألعوبة في يد غريزة تدفعه الى السقوط دفعـــاً وهو لا يدري !.. انه لا يقدم على العمـــل إلا حين يصبح في أمس الحاجة للمال .. وهنالك يندفع إلى الكتابة بجنون ، مرهقاً نفسه

(١) William Ernest Hocking, « Human Natur & its remaking »

الى اقصى حد، حتى تنال منه سموم التعب ،ويصبح بالمريض أشبه، ويمضي الوقت الذي يعقب إنجازه العمل ينشد النقاهة !.. وقد حاول ، بناء على مشورة طبيب نفسي، ان يواصل الكتابة بطريقة منظمة حين لا تمس حاجته إلى المال فيضطر إلى إرهاق نفسه هذا الارهاق ، ولكن قصصه كانت تخرج فجة رديئة لا تصلح للنشر حتى يعيد كتابتها ! وطبيعي ان قراءه لا يعرفون شيئاً عن جهوده هذه المضيعة ، ولا عن الوقت الذي يتبدد هباء في إعادة صياغة ما كتب !..

وكشف التحليل النفسي لهذا الكاتب عن ان ثمة تصميماً قوياً في اعماقه يدعوه للفشل ، محتجاً بحجتين : الاولى ، انه يجبن عن التفوق على ابيه الذي كان يمتهن المهنة نفسها .. والثانية ، خاطر لا واعٍ يذكره بأنه لو رفضت قصصه فسوف يتنحى هنالك عن الكتابة ويكتفي بالأحلام والأوهام ! ذلك ان العقل اللاواعي لا يعرف شيئاً عن الحقيقة الواقعة التي يجب ان يعيش بها كل فرد « اعمل او مت » ! على ان هذا الكاتب المعذب كان له من تجاربه ما يكفي لإطلاعه على حقيقة مشكلته ، وبالتالي إنقاذه منها : فحين كانت تستبد به الحاجة للمال وتغلق في وجهه ابواب الاقتراض ، او بعبارة اخرى حين كانت تواتيه « شجاعة اليأس » كان ينتج انتاجاً طيباً رائعاً ! وكان هذا يكفي – كما قلت – لأن يستنتج منه حقيقة مشكلته ، ولكنه ، على العكس اتخذ لنفسه فلسفة تؤيد استمساكه بهذه الطريقة ، اذ كان يقول ان املأ لحظاته بالحظ هي اللحظة الاخيرة !

واذا دققنا النظر في امثلة الفشل الثلاثة السالفة ، وجدنا أن

الفشل في كل مرة كان يعود بثمار حقيقية تمثلت في : الهروب من المجهود الناضج لكسب وقت ينفق في الأحلام والأوهام .. ولم تكن تبذل ثمة محاولة لتغيير هـذا النموذج المصطنع في الحياة إلا حين يصبح الحرمان اشد ايلاماً من النجاح !..

ونحن جميعاً نخلق لأنفسنا مصاعب كهذه التي ذكرناهـا في الأمثلة السالفة : نتجنب العمل ، ونضيع الفرص ! ألم يحدث ان ارجعت الطرف في حياتك يوماً وقلت : « لو انني فعلت هذا او ذاك منذ خمس سنوات مضت لكنت اليوم اهنأ حالاً ؟.. وقد كانت الفرصة متاحة ،فلم لم تَرها؟ او هل انت متأكد أنك اللحظة لا تغمض عينيك عن فرصة لكي تراها في مستقبل ايامك بعد ان تكون قد ولت وأدبرت ؟ او لا تحس الساعة أثراً لارادة الفشل في حياتك ؟

ولكن ثمرات النجـــاح أوفر واشهى !.. فأضأل عمل متى احسنته ، واقل مهمة متى انجزتها على احسن وجه، يجلبان لك لحظة واحدة من السعادة هي خير من كل ما يمر عليك من لحظات مع الفشل! واحساس المرء بأنه يقاس بمقياس صحيح بدلاً من مقاييس متغيرة متبدلة تصنعها الأحلام ، وتصورها الأوهام ، كاحساس من وضع قدميه على اليابسة بعد ان ظل يضرب في البحر اسابيع! وليس إلا اولئك الذين يؤدون عملهم كأحسن ما يكون الأداء هم الذين يتحررون من الذعر الذي يعرفه الواهمون إذا ما فتحوا اعينهم على حقائق الحياة !..

وقد يبـدو « عنب » الحقيقة في رأي الخيال « حصرماً » ، ولكن الطعم الحقيقي لا يستبين إلا لمن يتذوقه !..

الفصل الخامس

تصحيح الاتجاه

برغم إرادة الفشل ، وبرغم ثمار الفشل ، فان النجاح هو الهدف الطبيعي للمرء في الحياة . وطاقة النشاط إنما جعلت ، لا لتنفق في الخمول والجمود ، ولا في الجهد العقيم ، ولا في العمل الذي لاطائل وراءه ، وإنما لتخدم فكرة رفيعة لا نحققها إلا حين يكتمل لنا النضج .

أما ما هي هذه الفكرة ، فانها تختلف من فرد الى آخر ؛ وهي تنمو وتتطور مع نمو الفرد وتطوره ، وليس في وسع شخص غريب عنا ان يملي علينا مواصفات نجاحنا أو يدلي لنا بتعريف له . فعسى ان يتمثل النجاح لفرد في الشهرة وذيوع الصيت ، ولآخر في المال والثروة ؛ وقد يعد العالم البحاثة نفسه ناجحاً ـ ويكون محقاً ـ اذا أضاف شيئاً جديداً ـ وإن دقّ ـ الى الحقائق التي جمعها العلم وتوصل اليها ، أو اذا تناول فرضاً علمياً وأحاله حقيقة ثابتة ؛ وقد لا يذيع اسم هذا العالم الا في نطاق علمي ضيق ، وقد لا يذيع اطلاقاً حتى

في هذا النطاق الضيق ولكنه مع ذلك فقد حقق الهدف الذي عمل من أجله ، ومن ثم فقد نجح لأ نـــه اصاب ما أعد نفسه لإصابته ..

والممثلة التي تبلغ الذروة في فنها يساوي نجاحها نجاح أم في بناء أسرة كبيرة ، يتمتع أفرادها بالصحة الطيبة والخلق القويم . ورجل الدين الذي يتفانى في صمت في خدمة دينه ، نجاحه كنجاح العبقري الذي يعرفه أكثر معاصريه . وقد تكون لفرد فكرة للنجاح لا ترتبط بسبب بأفكارنا عن النجاح حتى لنعجز عن الوقوف على السبب الذي دفع به الى هذا الميدان .. فما لم نكن قد تجردنا تماماً من الخيال ، فاننا نعده ناجحاً ولا ريب حين نراه يحيا حيـاة المسئولية والنشاط والإنتاج والنفع والسعادة ، مستغلًا فيما يعمل أقصى إمكانياته ومواهبه .

وتقديم تعريف محدد للنجاح يتنافى مع الغرض الذي من اجله كتب هذا الكتاب . فضعف ثقتنا في هذه الكلمة ، يعود اكثره الى عدم ادراكنا لمدى اتساع آفاق النجاح .. ففي نهـاية طور المراهقة ، يكون الفرد منا قد جمع عن نفسه وفرة من المعلومات لو انه اختبرها عملًا بالنصيحة الخالدة « اعرف نفسك » لوسعه ان يتبين مثله الأعلى في الحياة الطيبة الراضية .

وإنه ليجب ان يهدف التعليم الى مساعدة كل صبي على استخلاص مفاتيح مستقبله من معرفته بنفسه وأوجه التفوق فيه ، كما يجب ان يُبصَّر الطلاب ـ وهم في هذه السن الغضة ـ بالضرر الذي قد ينجم عن عشق البطولة ، والتعلق بأهـداب صفات وامكانيات

لا تتوفر في كل فرد على السواء ، وأن يصحح في أذهانهم الخطأ الشائع القائل بأن ما يدفع فرداً الى النجاح خليق بأن يدفع الآخر إليه .. على انه برغم الاضطراب الذي يزج بالطفل فيه ، وبرغم الخطأ الذي يلابس ما يقال له عن النجاح ومقتضياته ووسائله ، وبرغم ميله الى محاكاة آمال ابيه أو مدرسيه؛ بالرغم من هذا كله ، ما ان يبلغ الفرد منا العشرين أو يتخطاها بقليل حتى يدرك ما هو أهل له ، وما هو خليق بأدائه لو توفرت له الخبرة ، وسنحت الفرصة ..

وإنه ليجدر بك ان تذكر انك ما لم تبالغ في تقدير صفاتك وإمكانياتك فسوف تجد فكرتك عن النجاح في نطاق تلك الأشياء التي تستطيع اداءها . ونحن عادة نخفق في تقدير إمكانياتنا ونبخسها قيمتها . وسوف نناقش اسباب ذلك فيما بعد . ولكن يكفي ان نقول هنا ان الأقلية جداً هم الذين يعتقدون انهم صالحون لأعمال تفوق بكثير مواهبهم وإمكانياتهم .

وأحب ان أوضح انني لا أريد في هذه الصفحات ان ادعك تستبدل بفكرتك عن النجاح فكرة مثالية رفيعة ، كما انني لا أريد في الوقت نفسه ان ادعك تطامن آمالك ، وتهون مطامحك لكي يصبح في ميسورك تحقيقها .. وإنما أنا على العكس أريدك ان تستعيد في ذهنك الصورة الأولى التي رسمتها لهدفك ، والحلم الميسور التحقيق الذي تصورته في خيالك زمناً ؛ أريدك ان تستعيده واضحاً بيناً ، نابضاً بالحياة ، فهنالك يصبح تحقيقه اقرب وأدنى ..

والآن وقد ناقشنا التيارات المركبة في طبيعتنا والتي تدفعنا الى الاستسلام للفشل ، وأدركنا اننا متى امتثلنا لهذه التيارات انسقنا في اتجاه الموت ، دعنا نتأمل الآلية التي تعمل لتعوقنا عن بذل الجهد الذي لابد من بذله لكي ننجح .

لقد شاع بيننا القول بأننا نتعلم عن طريق « التجربة والخطأ » اي اننا نتعلم حين نستكشف ان عملنا في اتجاه لا ينتهي بتحقيق الهدف الذي أردناه . فنتحول الى اتجاه آخر .. وقد نعيد الكرة مرات عدة حتى نهتدي الى الاتجاه الذي يوصلنا الى هدفنا فنلتزمه.

تلك هي الصورة التي تتمثل في أذهاننا لطريقة « التجربة والخطأ » ، وهي في مجملها سديدة ، ولكنها تغض النظر عن عامل ، وان تجاهلناه ، الا ان عقلنا الباطن لا يتجاهله ، ذلك هو عامل الألم ! فاننا نتحدث عن النجاح الذي تعقبه طريقة « التجربة والخطأ » كما لو كان هو وحده النتيجة التي نخرج بها من تجاربنا ومحاولاتنا ، وكما لو كان يمحو من اذهاننا ذكريات الفشل التي لازمت محاولاتنا الأولى قبل أن نصيب النجاح .. نعم لقد نجحنا أخيراً ، ولكننا جربنا الفشل ، وعانينا معه السخرية احياناً ، والألم احياناً ، والمذلة أحياناً أخرى ؛ وذاكرتنا لا تختزن النجاح الأخير وحسب ، وانما تختزن ذكريات الفشل ، والألم ، والمذلة ايضاً .

والعقل الباطن يفزع من الألم ، والمذلة . وهو يبذل أقصى ما يسعه من جهد ليتجنب الألم ، أكثر مما يفعل للحصول على المباهج والمسرات التي وراء الألم ! وهنا نجد انفسنا نجابه حقيقة واقعة

مسئولة ولا شك عن جمودنا وخمولنا ، ونحن نمتثل لها ونخضع في الوقت الذي يتعين علينا فيه أن نعمل وهدفنـــا على مرمى البصر منا !.. فبدلاً من أن ننشط للعمل ، نقعد عنه لكي لا نواجه الألم او حتى احتمال مواجهته !.. أو قد لا نقعد عن العمل ولكننا نزاول نشاطاً أسهل واهون مما نحن خلقاء بمزاولته ؛ أو قد نبدأ برنامجاً حتى نبلغ نقطة نذكر اننا قد أصابنا الألم في مثلها من قبل فننتحل عذراً ، أي عذر ، لننكص على اعقابنا مسرعين !ويتنتصر العقل الباطن البدائي !

ولا أحسب أن احداً يريد ، لكي يتجنب ألماً وقتياً ، ان ينغمس في فشل مروع باق ،وان يُضيع الفرصة تلو الفرصة، وان يعرض نفسه لألم أكبر وأشد مما حاول اجتنابه !.. وفي ميسورنا لحسن الحظ ، ان نسلم ذكرى الألم السابق ، أو المذلة السابقة ، للنوم، فلا تعود تقف عقبة دوننا والنجاح ، ولا تدفعنـــا دفعاً الى الفشل .

كيف ؟ المسألة غاية في البساطة .. بأن نتصرف كما لو كان من المستحيل أن نفشل !

نعم ، ذلك هو الطلسم السحري الذي يحول فشلنا الى نجاح !

في ميسورك ، مستعيناً بقدر معقول من الخيال ان تمحو من نفسك كل ما يعتمل فيها من ضعف الثقة ، والجبن ، والخوف ! وسوف تجد ، متى استطعت ان تجسم في خيالك الحالة الذهنيـة الكفيلة بدفعك في اتجاه النجاح الذي أعددت العدة له وأملت فيه، سوف تجد طاقة هائلة من النشاط والحيوية تنطلق من عقالها لتسخر

في خدمتك ! كما لو كان عقلك قد اطلق زفرة طويلة وهو يتنسم الحرية بعد الأسر ، ويتمطى الى آخر امتداده مستجمعاً قوته ونشاطه .. تلك هي اللحظة التي تدعو المرء الى الاعتقاد بأن في الأمر سحراً ! ولسوف يبدو له كأنما هو قد زود بامكانيات ومقدرات اكثر مما كان يعتقد أنه يمتلك .

ثم يتدفق التيار ، وهو بين لحظة وأخرى يزداد قوة وشدة ، وقد يداخلك في مبدأ الأمر الخوف من ان يعود السحر فجأة كما انفك فجأة .. ولكن هذا لن يحدث ، لأن الأمر ليس فيه سحر على الإطلاق ، وانما هي نفسك الحقة عدت اليها أو عادت إليك ، وهذا هو ما كان يجب ان يكون منذ البداية .. فاذا ذكرت هذا ووعيته خرجت من أفق الى افق أرحب ، وتبدت لك إمكانيات اكثر ، كأنما تتفتق بعضها عن بعض ، ورأيت المستقبل الذي طمحت اليه على مرمى البصر .. وقد يعتريك شيء من الارتباك وانت ترى هذه الامكانيات والمقدرات تبدو لعينيك ، وتلك الآفاق تتفتق امامك ، ولكن هذا الارتباك سرعان ما يزول متى عمدت الى تنظيم حياتك الجديدة .

ولسوف تدرك هنالك ان قلقك ، وتوجسك ، ومخاوفك لم تكن مجرد أشياء سلبية ، بل انك حين تصرفت « كما لو كانت » تلك اشياء مهمة ، أضفيت عليها أهمية ، وأحلتها الى حقائق واقعة ، فنمت كما تنمو الطفيليات داخل الجسم على حساب صحة أعضائه جميعاً ! وحين كنا نسمح لهذه الطفيليات بأن تمتص حيويتنا ، فانما كنا نبدد الحيوية التي كان يجب ان تتجه لتنميتنا ولدفعنا في

في طريق الحياة الصحيحة المثمرة ، ونقدمها وقوداً لما يهدم العقل ويقوض نشاطه ، بدلاً من أن نقدمها غذاء لعناصره الانشائيـة البنائية. واذن فحين تتفتح عينا المرء على تلك القوى والإمكانيات الجديدة حين يكف عن تغذية مخاوفه ، فانما تتفتحان على قوى وامكانيات كانت موجودة طول الوقت ، ولكنه لم يكن يجـد الطاقة التي تعينه على استكشافها . انه يلفي نفسه فجـأة يمتلك مقدرات لم يكن يظن انهـا ترقد في اعماقه وهو لهذا يحسبه قد تلقاها لتوه !

ويلي ذلك ان يحس المرء، على عكس ما كان يحس من قبل ، انه متحرر من التعب ! سوف يجد انه يعمل اكثر مما كان يعمل من قبل ومع ذلك لا يحس التعب، ولا يحس الاكتئاب في نهاية الامر.. فأمامه دائماً الكثير مما يتطلب الانجاز، وهو يراه واضحاً متجلياً، ومن ثم فليست امامه فرصة للاكتئاب.. فحين يثبّت العقل نظره على الماضي فـلا يرى الا الفرص التي سنحت وراحت، ولا ينظر الا ما كان خليقاً بأن يقع ويُنجَز ، فهو بطبيعة الحال عاجز عندئذ عن ان يتطلع الى المستقبل ويرتاد الطرق المفضية اليه.. ولكنك متى حررته من هذه النظرة التي لا طائل وراءها واعفيته من هذا العبء الذي لا جدوى منه، جزاك اجزل الجزاء، واثبت لك مقدرته فتخطى كل العقبات التي بدا لك من قبل انه ليس في ميسوره تخطيها !

والانتقال من عمل ناجح الى آخر بحيث لا تضيع فيما بينها وقتـاً ولا تبدد نشاطاً، واعتياد السهولة التي تؤدي بها العمل ،

وبعلم تقدير ما انجزت بقدره وقيمته الحقة، كل ذلك يتطلب من المرء ان يأخذ نفسه بالتعلم والتدرب، ولكنه سيجد نفسه في الطريق بعد ايام قلائل من التحرر.. حين يرى انه يعمل ما يريد، وينفق فيما يعمل وقتاً اطول مما كان ينفق من قبل، ومع ذلك لا يستشعر تعباً، ويرى امامه الكثير مما يتطلب الإنجاز ويمتلىء لذلك غبطة وسروراً.. فلا خطر عليه عندئذ من النكوص ولا خطر عليه من ان يصبح عمله الاول الناجح، عمله الاول والاخير!

واذا كنت الآن وانت تطالع هذه السطور تحسب انني ادعوك لخداع نفسك وايهامها بالنجاح، فانت مخطىء، فنحن في حياتنا اليومية عمليون تجريبيون. فما يفضي الى نتيجة تقبلناه حقيقة عملية واقعة، ويصبح اساساً لنشاطنا في المستقبل. قال «وليم جيمس»: «مقياس صدق افكارنا هو نجاحها في اداء وظيفتها»، وقال «هانز فايهنجر» في كتابه «فلسفة كما لو كان» (١): «من الواضح الجلي اننا في شتى امور حياتنا يتعين علينا ان نتصرف «كما لو كان» هذا الامر او ذاك حقيقة واقعة.. فاذا أصررنا بدلاً من ذلك، على ان نتحقق من «حقيقة» هذه الحقيقة او تلك فلن يبقى امامنا متسع لكي نعمل!»

وما دمت قد جربت الحياة غير المثمرة ولا المجدية، اي تصرفت «كما لو كنت» تبغي الفشل، فلماذا لا تفعل العكس

---

(١) Hans Vaikinger, « the Philosophy of « As If »

لتبلغ الحيـــاة المثمرة المجدية، فتتصرف « كما لو كنت » تبغي النجاح !.. على الاقل فلسفتك هنـــا فلسفة صحيحة سليمة ، فهي تدعو الى العمل والانجاز، وهي تتجه اتجاهاً سديداً، فهي تجعل لك النجاح حقيقة واقعة..

ان قانون الطبيعة ما برح على العهد به دائماً ، فمن يعمل تواتيه القوة ، ومن لا يعمل تهرب القوة منه !

الفصل السادس

نحو الهدف

إذا كنت بمن يتمتعون بالخيال الخصب ، فلعلك قد عرفت الطريق بمجرد أن سقت لك هذه العبارة في الفصل السابق : تصرف كما لو كان مستحيلاً أن تفشل ! فإذا لم تكن ، أو كان الفشل قد أضر بك ضرراً بليغاً ، فعسى أن تجد صعوبة في ادراك الطريق.. ولكنها صعوبة في الوسع تذليلها .

ولأبسط لك الفكرة اقول : بدلاً من أن تحاول أن تبدأ ، او تقسم أن تبدأ ، او تخدع نفسك بالتظاهر بأنك ستبدأ غداً او بعد غد ؛ بدلاً من أن تمتثل لذكريات الألم والفشل السابقين ؛ أنفق ما يلزمك من وقت في بناء اتجاهك الذهني ، ذلك الاتجاه الذي تريد أن تبدأ به ، والذي يسهّل عليك البدء ويهونه ..

لو أنك على موعد ، فإنك لا تهرع إليه مشعث الشعر مشوش الهندام ، وإنما أنت تنفق وقتاً لا بد منه ، في تمشيط شعرك ، وغسل وجهك ، وإحكام هندامك ، وتنظيف ثيابك ، بل في

اظهار محاسنك ومداراة عيوبك ، فاذا ذهبت الى موعدك حاولت أن تتصرف كما لو كنت دائماً في أحسن حالاتك ، وكما لو كان هذا المظهر اللائق هو طبيعتك ..

وأنت الآن على موعد « ذهني » .. موعـــد مع نفسك الناجحة !.. فكيف تهندم هيئتك الذهنية لتخرج من الموعد بالثمار التي ترجوها ؟

أولاً بأن ترسم لنفسك نموذجاً ، او تسوق لها مثالاً .. فلكل إنسان فكرة عن النجاح ، وقد كانت له دائماً هذه الفكرة .. فعد اليها وإن بدت لك صبيانيــة ، فأنت في أمس الحاجة لأن تـدع النجاح يسيطر على ذهنك وحواسك ... استعد ذكرى النجـاح الذي حققته – وان كنت قد حققته صبياً ، او طالباً في المدرسة – ولكن لا تنغمس في ذكرى النشوة التي أعقبت النجاح ، وانمـا اقتصر على إحساس الثقة الذي لازمك عندمـا ادركت أن في ميسورك ان تصنع شيئاً وعندما اقدمت على صنع ما وجدت في نفسك المقدرة على صنعه ؛ واجتهد في أن تستحضر في مخيلتك كافة تفاصيل ذلك الظرف ، ثم وجّه خيالك هـــذا الاتجاه الذهني على العمل الراهن الذي بين يديك ، او الذي أملت في تحقيقه .

فاذا وثقت تمام الثقة في أن العمل الراهن الذي بين يديـــك سيمضي الى غايته في سهولة ويسر كما مضى العمل المـــاضي الذي اصبت فيه النجاح ؛ واذا علمت أن ما تبدأه اليوم سيسير في طريقه على ما يرام منذ بدايته حتى غايته ، فماذا يكون احساســك ؟ وكيف تتصرف ؟ وماذا يكون اتجاهك الذهني وأنت تشرع في

هذا العمل ؟

ثبّت اهتمامك في ذلك ، فذلك هو الاتجاه الذهني الـذي يحفز الى النجاح . وحتى تبلغ هذا الاتجاه لا تبدأ شيئاً ، وإنما اجتهد في أن تبلغه بأسرع ما تستطيـع ..

فمتى بلغته ، فتشبث به فترة كما لو كنت تنتظر اشارة البدء ، وفجأة تستشعر تحرر الطاقة وانطلاقها ، فتلك هي إشارة البدء ؛ ويسعك عندئذ ان تبدأ ؛ ولسوف تجد أنك في غير حاجة لأن تواصل دفع نفسك وحفزها الى العمل ، فطاقتك المحررة المنطلقـة ستدفعك هي نفسها الى العمل ، بل ستدفع العمل تلقائيـاً الى نهايته ..

ولقد كان ذلك العبء الذي اضفته الى كاهلك بغير داع لدفع نفسك الى العمل واخراجها عن جمودها، هو الذي اوهمك بعجزك وقصورك ، وجعلك تبدو لناظريـك كمن يبحث في الضباب عن بغيته ، وحدا بك الى التوقف بين لحظـة واخرى لتستغرق في شكوكك ، ومخاوفك ، وقلقك ، وذكريات ما مر بك من فشل ؛ وإذن ، فقبل أن تشرع ، أخل الطريق مما يعترضه ؛ بأن ترفض ، بل تصر على رفض كل خاطر ينزع بك الى الفشل ..

ثم اعمل ، وانهمك في العمل حتى تحس التعب الحقيقي الذي لا تخطىء علاماته .. أما أن تحسب تشتت اهتمامك بادرة من بوادر التعب ، فذلك خطأ ، فما توزع الاهتمام إلا ردة تحاولهـا إرادة الفشل لتعود بك الى اتجاهك الذهني القديم .. فإذا حدث هذا ، فتوقف لحظات وقل لنفسك مؤكداً : كلا ، لن افكر في هـذا

الاتجاه أبداً ثم اعمد الى العمل مرة اخرى ، فاذا احسست أن جسمك وذهنك يعترضان اعتراضاً صادقاً على المضي في العمل لأنهما بذلا كل ما هما قادران على بذله من جهد ، فتوقف ، وابحث عن اسباب الاسترخاء والاستجمام .. فاذا حان فعلًا وقت الاسترخاء والاستجمام ، فسوف تجد انك تستمتع حقاً باللهو والترفيه ..

وثمة اشخاص قد أضرَّ بهم الفشل ضرراً بليغاً ، بحيث يتعين عليهم ان يتبعوا هذه الطريقة لفترة معلومة كل يوم حتى يستعيدوا اخيراً ثقتهم المطلقة بأنفسهم . والمعلمون والمربون يعلمون أن افضل الطرق لبث الثقة في نفوس طلابهم الصغار هو ان يعهدوا إليهم اولاً بالهين البسيط من الامور ليكونوا أقدر على انجازها فتنسكب الثقة في نفوسهم .. وكما تقول «دوروثي كانفيلدفيشر» في كتيبها الموجه للآباء « الاعتماد على النفس » (١) : « ان النجاح او الفشل في الحياة الناضجة يعتمدان على مقدار الطاقة والشجاعة ، والاعتماد على النفس التي يستغلها المرء لتحقيق احلامه .. والثقة بالنفس التي يتطلبها النجاح انما تتأتى من ذكرى نجاح سابق » ..

ويقول الاستاذ « هوكنج » في كتابه « الطبيعة الانسانية تصنع من جديد » : « تتألف التربية من طريقة للعمل ، وعدة امثلة للنجاح تقدم للنشء . وما أسهل ما نحمل الطفل على تحقيق المعجزات متى عهدنا اليه اولاً بعمل هين يحقق فيه النجاح ! وما اكثر ما نزيل من طريقه من صعوبات متى عودناه من البداية ان

---

(١) Dorothy Confield Fisher. «Self Reliance»

النجاح ممكن ميسور.. فاذا زدنا ما نعهد به اليه صعوبة مرة بعد اخرى، دفعه انتشاؤه بنجاحه المتكرر الى تخطى كافة الصعوبات حتى ما حسبه هو في البداية صعب التخطي ! »..

واذن فحين تفتقد انت ثقتك بنفسك، ففتش عن رغبـــة لم تحققها لسبب او لآخر– فثمة عديد من هذه الرغبات في حياة كل انسان– واتخذ تلك الرغبة موضعاً لمحاولاتك.. وكل ما يلزمك في تلك المحاولات اما ان تجتهد في اخراج الرغبة من حيز الاحلام الى حيز الواقع ، واما ان تصحح الطريقة ان كنت قد حاولت من قبل تحقيق هذه الرغبة..

وإليك بضعة أمثلة على كيفية تنمية مواهبك الثانوية بقصد اكتساب الثقة بالنفس التي تلزمك في طريقك الى النجاح .

في نيويورك ، طبيب ناجح مشهور ، تعلم أخيراً صناعة التماثيل من الصلصال ثم اتجه الى تعلم تلوين الآنية الفخارية ، وقد فعل ذلك ليتيح لنفسه تجربة النجاح الظاهر الملموس ، إذ ان ميدان عمله اليومي – الطب النفسي – لم يكن يقتضيه إلا إعمال الذهن والتحليق في آفاق الأفكار والنظريات ؛ وقد اتخذ هذه الهواية التي فتقتها موهبة كامنة فيه ، فنجح فيهـا نجاحاً باهراً . ولعلك تقول إنه نجح لأنه يمتلك موهبة للنحت أو للتلوين ، ولكنه إذا كان يمتلك شيئاً قبل الإقبال على هوايته ، فذلك هو « إحساسه » دائماً بحبه للنحت والتلوين ، ولكنه لم يمس الصلصال أبداً قبل ان ينيف على الثلاثين !.. وكل ما فعله انه عمد الى رغبة كان يحسها كما يحس كل منا رغبة في وقت أو آخر ، وحاول تحقيقها فاكتسب

المتعة والنجاح ، والثقة بالنفس ..

وفي معهد الفنون بشيكاجو ، حجرة اطلق عليها اسم رجل اعمال أقبل على الفن بعد ان أربى على الخمسين .. واشترك يوماً بلوحاته في مسابقة فظفر بالجائزة الأولى .. وثمة ناد الآن في شيكاجو يضم رجال الأعمال الذين جاوزوا منتصف العمر يدرسون فيه الفن ، وينتجون اعمالاً فنية رائعة ..

وثمة شابة في الثلاثين تعمل كاتبة في مؤسسة تجارية ، كانت تحس دائماً رغبة في العزف على البيانو .. وفي ذات يوم ، وبينما هي عائدة الى دارها ، دفعها إحساس قوي لم تقاومه لحسن الحظ ! الى بيت رأت على واجهته إعلانا عن دروس تُعطى في الموسيقى ، وكان نجاحها نسبياً بطبيعة الحال .. فهي لم تنفق في دراسة الموسيقى الوقت الذي تتطلبه هذه الدراسة .. وهي لم تقبل عليها في سن مبكرة حتى يسعها تدريب أصابعها وعضلاتها ، ولكنها نجحت في إصابة هدفها .. وقد تغيرت حياتها تماماً عقب تلك اللحظة التي استجمعت فيها شجاعتها لتدلف الى مدرسة الموسيقى ! فإلى جانب المتعة التي اصابتها حين حققت رغبتها فعرفت عن الموسيقى أكثر مما كانت تعرف ، فقد تصرفت بطريقة ناضجة أكسبتها الثقة بالنفس في كل ناحية من نواحي حياتها ..

وعسى ان تفيد هذه الأمثلة الثلاثة في إيضاح ما قصدت اليه وفي اضاءة الطريق امامك . فما يتعين عليك ان تفعله هو ان تخطو خطوة ايجابية لتحيل حلماً من احلامك ، او رغبة من رغباتك حقيقة واقعة .

لنفترض مثلا انك تريد السفر ولم يقدر لك من قبل ان تحقق هذه الرغبة ، فإذا أردت ان تُخرج هذه الرغبة من حيز الاحلام الى حيز الواقع ، فثمة اشياء لابد من تحقيقها أولاً ، فإذا لم تقبل على تحقيقها فذلك اسطع دليل على انك تدع عقلك الباطن البدائي يوجه حياتك ويملي شروطه ، بدلاً من عقلك الراجح .

فاذا كنت تبغي زيارة ايطاليا مثلًا ، فإن متعتك بها تكون أوفر إذا الممت بشيء من اللغة الايطالية ، او بشيء من تاريخ البلاد . فهل تفعل ذلك ؟ ومع ذلـــك فالسوق مليئة بالكتب المبسطة في اللغات والتاريخ .. ثم مـاذا يجب ايضاً ان تحققه ؟ الوقت ، والمال ، وهما صنوان . فتوفير المال يحتاج الى وقت ، فباصابتك احدهما تصيب الآخر .. فاشرع في ادخار المال ، او فكر فيما يمكن ان تصنعه في وقت فراغك ليدر عليك دخلًا اضافياً . ومهما يشق عليك العمل الإضافي فان رغبتك في السفر ، وعلمك ان ما تكسبه من مال سيخصص لتحقيق هذه الرغبة ، كفيلان بتهوين هذه المشقة .

رغب صحفي في ان يسافر الى ايطاليا ، ولم يكن معه من المال ما يمكنه من تحقيق حلمه ، ولا كان له وقت فراغ ينفقه في عمـل اضافي .. وسعى الرجل الى صحيفة ايطالية تُطبع في امريكا ، ونشر اعلانا عرض فيه ان يلقن دروساً في الانجليزية او في الصحافة مقابل ان يتلقى دروساً في الايطالية .. فما مضى عامان حتى كان في طريقه الى ايطاليا بصفته مدرساً لأحد ابناء سراة الايطاليين ؛ وهو اليوم يشغل منصباً في السلك الدبلوماسي !. وحقق الرجل

بهـذه الطريقة الأمل الذي داعبه طويلًا ولم يكن يستطيع الى تحقيقه سبيلًا لأنه يعيش في حدود دخله ..

واحذر ان تنقلب خطواتك الأولى في سبيل تحقيق هدفك انغماساً في احلام اليقظة ! بل « افعل في كل يوم شيئاً يدنيك من الهدف مهما يكن بعيداً » .. فإذا كان النحت ما تبغيه فتوقف غداً عند محل رخيص واشتر منه كمية من الصلصال ؛ وإذا كان السفر ، فأرسل غداً في طلب نشرات السياحة ..

ولا تتحدث في البداية لأحد عن هدفك ، وإنما احصل اولاً على النتائج فإذا اسرعت الى التحدث بآمالك لا يسعك الا ان تحس ، عاجلا او آجلا ، كأن هنـاك مؤامرة لاحباط سعيك ، وقد تكون فيما تحسّ مصيباً !.. فأولئك الذين ما زالوا اسرى في قبضة أوهامهم ، وعبيداً في رق « إرادة الفشل »يزعجهم ويثيرهم مرأى أولئك الذين يكسرون قيودهم ، وهم خليقون بأن يتآمروا على إحباط محاولاتهم !

كذلك حين يستشعر العقل الباطن أن الزمـام قد أفلت من يده ولم تعد له الكلمة العليا ، ولا بقيت له احلامه واوهامه يرتع فيها ويسبح ، يعمد الى المقاومة ، ومن الوسائل الشائعة التي تتجلى فيها هذه المقاومة الفرار الى الحكم والأمثال التي تبدو حصيفـــة راجحة ، وما هي في الواقع إلا تعزية يوجهها الذين انتبذوا الحقيقة لأنفسهم ! (١)

---

(١) ساقت المؤلفة نماذج من الأمثال الشائعة في بلادها التي تستهدف تعزية النفس عن تعودها عن تحقيق آمالها ، وهي تشبه في مضمونها تلك الشـــائعة

فاذا كنت حقاً تحرر نفسك من قيودك ، فأنت إنما تدبر مؤامرة مع « الحقيقة » ، لترى ما الذي يمكن ان تحصل عليه حقاً اذا استخدمت في عملك من الشجاعة والاقدام اكثر مما كنت تستخدم من قبل .. ولن تلبث الا قليلاً ، متى بدأت مخلصاً لا هياباً ولا متشككاً ، حتى تتحدث النتائج عن نفسها ، مزودة اياك بكافة ما تطلبه من حجج وبراهين !

وأول ما توجهه لنفسك من اسئلة هو : « ما الذي ينبغي أن افعله الآن اذا كان « مستحيلاً » حقاً أن أفشل ؟ » قد يكون ما تبتغيه السفر ، او النحت ، او الكتابة ؛ وقد يكون شيئاً من مئات الاشياء الأخرى .. فمها يكن ، فإنك بشيء من التفكير تكتشف الخطوة الأولى .. فاذا وقعت عليها وخطوتها فتسائل نفسك مرة اخرى : « ما هي الخطوة الثانية » (١) .. وهكذا حتى يستبين لك الهدف تماماً ، بل يأخذ في التشكل والنمو كما لو كانت له حياة مستقلة ؛ وهنالك يسوقك أنت أمامه ، بدلاً من أن تحمل أنت عبء سوقه !

ففي وقت من الأوقات سترى نفسك مندفعاً « بالقصور الذاتي » ، لتلك الطاقة التي أطلقتها منذ وقت غير بعيد .. فالحياة

عندنا ، مثل « القناعة كنز لا يفنى » أو « الرضى لمن يرضى » أو المثل الدارج « تجري جري الوحوش وغير رزقك ما تحوش » [المعرب]

(١) تحت الطبع المترجم الآن كتاب بعنوان (كيف تحقق آمالك) لمؤلفه المر هويلر ، وفي هذا الكتاب شرح واف للخطوات التي تتبع لتحقيق الاهداف.

« مرنة الى اقصى حد يمكن ان تتصوره » — هكـذا اعتاد طبيب نفسي ان يقول لمرضاه — وهي على التحقيق اشد مرونة مما تصورنا ونحن قعود عن العمل !

الفصل الرابع

نصح وتحذير

قد يحسن قبل ان استطرد ان أنبه الى اشياء قد يخطىء البعض فيحسبني ادعو اليها .. اود ان أسوق نصحاً وتحذيراً ..

أنصحك أولا الا تحاول ان تسلم نفسك لنوم مغناطيسي أو ما يشبهه لكي تمضي في طريقك الى النجاح .. ولا حتى ما يتفرع عن التنويم المغناطيسي من ايحاء ذاتي .. كل ما يتطلبه الامر ان تأخذ نفسك بشيء من الإرادة أولاً حتى تبلغ مرحلة التصميم ، ثم تدع لخيالك الزمام : الخيال الذي يملأه حلمك واملك بحيث يحجب ما عداه من أسباب التشكيك ، والبلبلة، والتخبط.

والفرق بين ما أدعو اليه وبين الايحاء الذاتي ان الأخير قد ينطوي على تخلية السبيل ما بين العقل ودنيا الحقيقة، كما هي الحال تماماً مع أحلام اليقظة .. وانت فضلاً عن هذا ، لا تستطيع ان تجعل نفسك دائماً في حالة مغناطيسية تتيح استمرار الايحاء ، ومن ثم فالايحاء خليق بأن يزول اثره في يوم ما .. وحتى لو لم يزل اثره

فأنت في الأغلب غير قادر على ان تربط بين ما اوحيت بـــه الى نفسك وبين الحقيقة على شكل عمل او سعي ؛ وانت ما لم تعمل وتسع فأنت بعيد عن النجاح شأنك في ذلك شأن المستغرق في خواطر واحلام يقظته !

ونحن انما تنشد العمل الواثق ، الدائب المنطلق على سجيتـــه متحرراً من كل قيد.

وانصحك ثانياً ، ألا تلتزم طريقة قطع التأكيدات لنفسك كأن تقول : « لا يمكن ان افشل » او « انني ناجح في كل ما افعله » وهكذا . فهذه الطريقة أشبه بالتنويم الذاتي ، ولها نفس عقمه لمن يتبعونه على غير فهم لمبادئه وفلسفته .

وقد يكون في فلسفة قطع التأكيدات ما يحمد ، اذ هي ترى ان ثمة وحدة نهائية مهما يبد في طبائع الاشياء من « ثنائيــة » او « تناقض » وهي تستهدف ابلاغنا هذه الوحدة برغم هذه الثنائيــة وهذا التناقض. ولكننا ، مع هذا او برغمه ، تكيفنا ظروف شتى ، منها شخصياتنا ، وحقائق الحياة الملموسة ؛ ومن ثم فالآمن والأسلم ان نتصرف كما لو كانت « الثنائية » أو كان التناقض هما قانون الحياة ؛ اي كما لو كان الخير والشر يتنازعان الأشيـاء على قدم المساواة !

وصحيح ان ثمة من نشأوا على استخدام طريقـــة « قطع التأكيدات » وعلى احسان العمل بها ، ولكن في مقابل كل واحد من هؤلاء مائة لا يسعهم استخدامها او يحسون بسخف انفسهم حين يطلب اليهم استخدامها !.. فمن وجد في نفسه المقدرة على

استخدام هذه الطريقة فبها ونعمت، واما للمتشككين بطبعهم فهي عقيمة عقم التنويم الذاتي ..

وأنصحك ثالثاً بألا تندفع في ادعاء ما لم يحدث، كأن تحاول ان توهم الناس بأنك نجحت ، او تحيط نجاحاً ضئيلا بهـــالة من التجسيم والتضخيم.. وليس اخلق بأن يُوهَم سواك ، على الاقـل في البداية !

خلاصة نصائحي لك اذن هو ان تفعل ما سبق ان اسلفته لا ادنى ولا اكثر ، او « ان تتصرف كما لو كان مستحيلاً ان تفشل » ..

وفوق ذلك ، لا تظل تتعلق بوهم عن النجاح ! ربما كان وهماً اكثر تفصيلاً واوضح معالم ، ولكنه ما برح وهماً كسابق احلام يقظتك ! وفرق بين الوهم والخيال .

قبل ان يخرج فرويد على العـــالم بنظريته المحكمة ، كتب الايطـالي « بيكو ديللا ميراندولا » بحثـاً بعنوان « الخيال » فرق فيه بين نوعين من الخيال : الأول يتجه الى الماضي محاولاً إبقاء المرء في طفولته ـ ذهنياً ـ والثاني ، هو الخيال الذي نجده عند الرجل الناجح ..

وهو النوع الثاني الذي نريـــده حاضراً ، فإذا جعلت ذلك نصب عينيك لم يعد ثمة خطر عليك من ان تنزلق الى عادتـــك السابقة : الانغماس في الخواطر .

واذكر ان النجاح يعتمد على حالة ايجابية تسيطر على البدن والعقل ، كما يعتمد على العمل المثابر ، والشجاعة والاقدام، فذاك

خير محك نفرق به بين الوهم وبين الخيال . فاذا اعقب ما تتمثله في ذهنك العملُ الذي تطبعه الحماسة والمثابرة والاقدام ، فذلك هو الخيال الصحيح ، واما ما يعطل النشاط ويتجه بك الى الوراء ويعوقك عن احلال عادة طيبة محل اخرى معطلة فهو موقف ذهني سلبي لا دخل للخيال السليم فيه !

لقد حددت لنفسك الساعات التي تعمل خلالها ، وفي نطاق هذا الزمن وكجزء من العمل بدأت اولاً فاصفيت أفق ذهنك ، فمتى اسلمك هذا الى حال من الغبطة والثقة والطمأنينة غدوت متأهباً للمضي قدماً .

الفصل الثامن

ادّخر أنفاسك

قدمت فيما سبق نصحي بالاقلال من الكلام ، وعسى ان يكون قد بدا للبعض انني اعتقد ان الالتجاء الى الصمت من مقومات النجاح.. والواقع غير هذا.. فان تتكلم بما فيه الكفاية، وان تتكلم كلاماً مقنعاً، وان تقيم علائق الود والصداقة بمن حولك؛ تلك هي مقومات الحياة المثمرة الناجحة؛ ولكن الاسراف في الكلام سهل، وهذه السهولة هي التي تغري باختيار الوقت غير المناسب، او باختيـــار الموضوع غير الملائم.. والامثلة الشائعة تبصر بخطر الاندفاع في الكلام، ومغبـة الانسياق وراء الاسراف فيه.. من هذه الامثلة : « اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من الذهب » او « أسمع جعجعة ولا أرى طحناً »؛ او « الكلب النابح لا يعقر » وهكذا .. وكذلك سبقت امثلة تمتدح الرجل الذي يتكلم بقدر، ويلوذ بالصمت الحكيم متى دعت الحـاجة. وأحسب ان الظرف هنا مناسب لمناقشة الاسباب التي من اجلها امتدح الصمت.

لقد نصحت الاديان كلها بفرض الرقابة على اللسان، بل قد يتمادى اتباع اديان معينة فينذرون الصمت لفترة معلومة، او ينذرونه طيلة حياتهم، ومن هؤلاء بعض الهنود الذين تفرض عليهم فلسفة دينهم التدرب لا على فرض الرقابة على الكلام وحسب، بل على الانفاس ايضاً ! . ومما يجدر ذكره في هذا المقام ان كلمة « نَفَس » في اللاتينية والافريقية تطلق ايضاً بمعنى « روح » الا ان الكلمة الاولى مذكرة والثانية مؤنثة !

وفي هذا اكثر من دلالة واكثر من مغزى، فالتنفس من الآليات القليلة غير الارادية في جسم الانسان التي يسعنا ان نفرض عليها سيطرة ارادية، اي انها بمعنى آخر تقع على الحدود بين الوعي واللاوعي، فالرجل الذي يتكلم متى شاء ويصمت متى شاء، رجل قوي الارادة..

فاذا امتلك « اللاوعي » زمامنا واصبحنا تحت رحمته، تكلمنا حيث كنا نصمت لو كان لنا الخيار، وانما ننساق عندئذ وراء الكلام تلبية لضغط يلح علينا، فنتحدث عن مشكلاتنا ومتاعبنا، او ننتحل لانفسنا الاعذار، او نشكو من ظلم هين حتى لندهش احيانا حين نرى ان ما يستدره كلامنا من عطف المستمعين اكثر مما يتطلبه الموقف او تستدعيه الشكوى ! فمتى اكتشفنا هذا المنبّع الذي نستقي منه العطف والاشفاق فقلّ ان يبلغ بنا النضج الحدّ الذي يردنا عن استغلاله، ومن ثم يشتد في نفوسنا ساعد « الصبيانية » ويمنى نضجنا وتطورنا بالفشل والهزيمة !

ولعل من اسوأ مساوىء ارادة الفشل انها تدفع ضحاياها

دفعاً الى السعي وراء النصح حيث لا ضرورة ولا داعي!.. والسبب الكامن الدفين وراء طلب النصح (بغير ضرورة) هو اننا بذلك نحس الحماية، بل نحس التدليل برغم اننا لم نعد اطفالاً!.. وهذا بدوره، يعني استزادتنا سلفاً من مبررات للفشل! فلو اننا عملنا بمشورة الآخرين ولم ننجح، فالواضح عندئذ ان الذنب ليس ذنبنا، ومن ثم تتاح الفرصة لان نمضي في احلامنا وخواطرنا موهمين انفسنا اننا لو اتبعنا احساساتنا ومشاعرنا عوضاً عن نصح الناجحين لنجحنا!!

وما دامت امثال هذه الدوافع موجودة فعلًا لا سبيل الى نكرانها، فالأوفق اذن ان نفحص كل احساس يدفعنا الى طلب النصح كلما هممنا بطلبه. فاذا كان الدافع فوق الشبهات، فثمة سؤال اخير ينبغي ان يوجهه المرء لنفسه قبل ان يعمد لطلب النصح، وهو: «لو انني حللت هذه المشكلة بنفسي، فهل كل ما اخسره هو الوقت؟ فاذا كان جواب هذا السؤال بالايجاب فالافضل بصفة عامة هو ان يجتهد المرء في حل مشكلته بنفسه، اللهم الا ان يكون الوقت الذي سيستغرقه من الضخامة بحيث لا يتناسب والنتائج المرتقبة المترتبة على حل المشكلة.

واذا كنت رجلًا انشائي التفكير، فسوف تدرك ان الوقت الذي تقفه في ايجاد حل لمشكلة، او لابتكار خطة تنتهجها ليس وقتاً مضيعاً.. ونحن ميالون الى اعتبار ما فعله «جوزيف كونراد» البولندى الذي غدا واحداً من اقطاب الكتاب بالانجليزية، وشتاينمتز، عبقري الكهرباء، شبيهاً بالمعجزات

وقد حققا ما حققاه معتمدين على نفسيهما، لقد كان اعتمادهما على نفسيهما ركناً اساسياً من اركان نجاحهما، ولكن الذي يحدث اننا نساعد بعضنا بعضاً الى حد اننا قد نجد انفسنا في النهاية لا نصنع الا القليل ! وننظر الى ما صنعناه، فاذا هو لا ينبع حقاً من ذات نفسنا ، ولا يعبر عن شخصيتنا واذواقنا وإنما هو خليط من الأذواق ، والمواهب ، والوسائل لا يتميز عن اشباهه في شيء !

وانظر اليوم الى السيل المنهمر من القصص والروايات الذي يغرق الاسواق ، وانظر الى الكلمات والرسوم في الإعلانات التي تحفل بها الصحف والمجلات ، والى القصص المسلسلة ، او الرسوم الفكاهية التي لا تخلو منها صحيفة او مجله ، تجد كأنها كلها قد انتجها « مكتب مركزي » ! ولكننا نمر على هذه كلها مر الكرام وندخر اعجابنا لنضفيه على عمل يتميز بالاصالة ، وبطبيعة التفرد والاختلاف ..

واذن فما تنفق من الوقت في سبيل ابتكار حل لمشكلتك ، او رسم نهج اصيل تنتهجه ليس وقتاً ضائعاً ؛ وما تبذله في هذا السبيل من جهد ، وما تلاقيه من عناء هو خير لك وابقى ، فاذا جعلت هذا نصب عينيك ، فدعنا ننظر الآن فيما تصنع حين يحق لك ان تطلب النصح والمشورة ..

أنت تعاني مشكلة حقة .. فالخطوة الأولى إذن هي أن تدون مشكلتك على الورق ، أي أن تصوغها في عبارات توضح معالمها وتحدد تفاصيلها ، بحيث يسهل عليك ان تدركها وتحيط بها ..

أما لو انك سمحت لهذه المشكلة بأن تظل تدور في رأسك فستبدو لك اضخم واكثر غموضاً مما لو تفحصتها عن قريب واختبرتها عن كثب .. ثم ابحث بعد ذلك عن الناصح « الخبير » سواء كان صديقاً او غريباً .. واجعل همك في البحث عن شخص تتقارب بينك وبينه الآراء ووجهات النظر ، فذاك يسهل عليه ان يمحضك النصح ، ويسهل عليك ان تقبل نصحه .. فاذا ضربت له موعداً فكن في حديثك مقتضباً محدداً ولا تكشف كافة جوانب المشكلة ، وانما مضمونها وحسب .. ثم اتبع ما اسداه اليك من نصح حتى تحصل على نتائج بينة ملموسة ، فاذا آنست من نفسك – وقد محضك النصح – ميلاً الى ان تطوح ذراعيك قائلاً : « كلا ، لن يجديني هذا شيئاً » ، فالأوفق لك عندئذ ان تتشكك في دوافعك ! . فمعنى هذا الرفض انك تضمر في ذهنك خطة كنت ترجو من ناصحك ان يقرك على اتباعها !.. ولأضرب لك هنا مثلا على الموقف الخاطىء الذي قد يقفه المرء من النصح لعله يوضح امامك الأمور ..

هل شاهدت يوماً مدرساً للرسم يُلقي درساً على طلبته ؟! إنه كثيراً ما يقع على خطأ في رسم تلميذ ، هو في الوقت نفسه خطأ شائع بين سائر التلاميذ .. وهنالك يجمع الطلبة حوله ، يمسك برسم التلميذ جاعلاً منه أنموذجاً ويذهب ينتقده ، ويوضح خطأه ، وكثيراً ما يعمد الى الممحاة فيمحو الخطأ ، ويرسم ما كان ينبغي ان يرسم .. ولو انك اطلعت على افئدة التلاميذ ساعتها لوجدت – لفرط العجب – انهم جميعاً يفيدون من نقد الاستاذ وتوجيهه

فيما عدا التلميذ الذي جعل خطأه انموذجاً ! فالتلميذ ساعتئذ قلق مضطرب ، مغيظ ، محنق ـ احياناً الى حد البكاء ـ شاعر انه قد وضع موضع الهزء والاذلال ! اي انه على الجملة يستجيب لنصح الاستاذ استجابـــة صبيانية !..

فاذا كنت انت الذي يطلب النصح ، اي لو انـــك جعلت نفسك من ناصحك في موقف التلميذ من استاذه ، فاجتهد في ان تفيد من اخطائك بدلاً من ان تتعذب بسببها .. واجتهد في ان تكون موضوعياً محايداً وناصحك يبين لك المنهج الصحيح ..

واذا كنت ما زلت طالباً في المدرسة ، فالأرشد ان تنتهز كل فرصة لتوجيه الاسئلة الحصينة ثم تتبع ما يلقى اليك من توجيه ، وفي النهاية وهذا من الاهمية بمكان ـ عد الى الاستاذ بأنبـاء نجاحك او فشلك كنتيجة لتوجيهه فليس في هذا فائدتك وحدك بل فائدة له ايضاً ، ومن ثم لسائر التلاميذ ، ما دام محك جدوى التوجيه وفائدته هو التجربة العملية .. فاذا دأبت ، في اثر كل توجيه ، على الفشل فالمسألة عندئذ احد امرين : اما انك لا تعي تماماً وجهة نظر الاستاذ ، واما ان هذا الاستاذ لا يصلح لك.

فاذا انتهت فترة تلمذتك ، او فترة عملك بتوجيه ناصح ، فلا تعمد الى توهين عزيمتك ، او اغراق نفسك في الشك بحيث يتعين عليك ان تستمر في طلب النصح والتوجيه حتى في اتفه التفـــاصيل والاجراءات.. وكل طبيب سواء كان بدنياً او نفسياً ، يعرف ان ثمة عدداً من « المعذبين » الذين لا يفتأون يوجهون اليه اتفه الاسئلة ، بحيث يبدو كأنه لا امل لهم في بلوغ النضج وهم على

هذه الحال من قلة الحيلة وانعدام الوسيلة !

ولا يرحب بهؤلاء الشكائين الا مشعوذ او دجال.. والشخص الذي لا يفتأ يتحين الفرص لالقاء تبعة فشله على الغير، او الذي لا يكبر ابداً بحيث يسعه ان يواجه مصاعبه ومشكلاته ويذللها، سيظل يسعى وراء النصيحة حتى آخر ايامه ! واحسب ان خير محك لترى ان كنت في طلبك النصح تتبع عادة عصبية تدفعك الى الاعتماد على الغير ، هو ان توجه الى نفسك هذا السؤال « أتراني اطلب هذه النصائح المتكررة لو تعين علي في كل مرة ان ادفع للنصيحة أجراً ؟ »

وجميع المشاهير الذين تسلط عليهم الأضواء يتلقون من الأسئلة ومن طلبات النصح ما لا مزيد عليه .. وهم عادة يجيبون وينصحون ، مفضلين تضييع وقتهم في ذلك على ردهم بالخيبة إنساناً ربما كان موهوباً ، او مبتدئاً شديد الحساسية.. فإذاحدث ان امتنع احدهم عن الجواب والنصح ، كما يحدث احياناً ، فالأرجح انه ليس مترفعاً ولا مغروراً ، وأنه كان ينصح ويجيب لو علم يقيناً ان السائل مخلص حقاً في سؤاله او في طلبه النصح ، ولكنه لم يعد يميز بين هذا وبين العصابي (المريض النفس) محترف الاستفسار وطلب النصح ، ومن ثم يقرر آخر الأمر السكوت .. وهو يعزي نفسه عن هذا السكوت بوثوقه من ان اولئك السائلين المستفسرين قادرون حقاً على أداء نصيبهم من العمل ، ولكنهم إنما يدأبون على السؤال تغذية لإحساسهم بالحرمان ، او طلباً للعطف والامتنان ، وأنهم إذا لم يتلقوا نصحاً ولا جواباً سيجدون

آخر الأمر وسيلة من ذات انفسهم لحل مشكلاتهم .

وإذن فخليق بالمرء في تلك الفترة التي يجمع فيها المعلومات عن نفسه ، او يعيد فيها تقييمها وتقويمها، ان يدخر الكلام والشكوى والسؤال وطلب النصح والاقتراحات ..

فهو يريد ان يبلغ الدرجة التالية التي تتيح له ان يعمل في أي ظرف وفي كل ظرف .. وهو لا يسعه ان يعرف دائماً ان صديقه او موضع ثقته سيظل في مركز يتيح له ان يعيره أذناً واعية عطوفاً كلما طلب اليه ذلك ، وفضلاً عن ذلك فإنه متى اعتاد على ان يقصد ناصحاً كلما جدله جديد ، باثاً بذلك في نفسه الأحساس بأن هذه خطوة لابد منها لكي يمضي في العمل على وجه مرض ، فانه إنما يضع بذلك اساس فشله المستقبل !

ومهما يكن ميدان عملك ، فإنك متى أنفقت كل لحظة في نشاط ايجابي ، أصبحت لك حياة من صنعك أنت ، هي خلاصة تجاربك وجماع خبرتك ، وسوف ترى عندئذ أن ما طرأ لك في الماضي من مشكلات إنما طرأ لأنك كنت في موقف « الهاوي » او « الجديد في الميدان » ، ولأنك لم تكن لك خبرة شخصية في الميدان الذي اتخذته ومن ثم بدت لك كل مشكلة كأنها فريدة في نوعها !

الفصل التاسع

مهمة الخيال

ناقشنا فيما سبق – إلى حد ما – أهمية الخيال في بناء حياة منتجة مثمرة ، وقلنا إنه يتعين الاستعانة به لخلق « جو » ذهني لا بد منه إذا اردنا ان نؤدي عملنا على افضل وجه وأكمله. ولكن للخيال ، فضلاً عن ذلك ، منافع لا تحصى ، وفي ميسوره ان يسدي إلينا العون في امور شتى ..

ونحن ميالون في حياتنا اليومية إلى الظن بأن الخيال شيء مفيد حقاً للمشتغلين بالفن في كافة فروعه ، وبأنه شيء لا فائدة منه – بل ربما كان العكس صحيحاً ! في حياة الرجال العمليين !.. والمفهوم الشائع عندما يقال ان إنساناً يستخدم خياله ، انه يأخذ عطلة « ذهنية » يقضيها في التكاسل والاسترخاء ، فإذا ثاب اخيراً إلى وعيه – والتحليق في الخيال كما يشاع بيننا نقيض للوعي والتنبه – ألفى نفسه قد بدد وقته ، واضاع صلته بالوقائع ، أو ضل في بيداء ليس له فيها مرشد ولا دليل ، او على الجملة قد لقي

جزاء تخليه عن الرقابة على ذهنه وإطلاقه يحلق كيف شاء واين شاء !

ومن ثم فنحن ننظر إلى الخيال نظرة التوجس ، ونسعى جهدنا لرد انفسنا عن الانغماس فيه ، او لمحوه إذا آثرنا التطرف والمغالاة.

اما ان الخيال قد يكون عوناً لنا اي عون في اهم الامور واعظمها ففكرة يقابلها الكثيرون بالاستنكار ! ذلك لانهم يرون الخيال ملكة ميالة للجموح إذا ارخينا المقود ، نزاعة إلى اتباع قوانينها ورغباتها التي لا سبيل لنا الى السيطرة عليها او توجيهها ، عصية على رقابة العقل والإرادة .. وهم محقون إذا اتصف الخيال بما يصفوه ، ولكنا متى امكننا السيطرة على هذه الملكة وتوجيهها وهبتنا الخيال الإنشائي الناضج ، او « الملكة الروحية » كما سماها « جوبير » .

ولننظر فيما يسع الخيال ان يسديه لنا من منافع وفوائد :

في وسعه ان يجعلنا ننظر إلى انفسنا عن بعد ، متجردين من عواطفنا وهواجسنا التي كثيراً ما تعوقنا عن النظر إلى انفسنا نظرة موضوعية فاحصة ؛ فمتى وسعنا هذا ، فربما اكتشفنا اننا ندأب على تعطيل مصالحنا ، ومن ثم يمكننا ان نحل محل النشاط السلبي المعطل نشاطاً إيجابياً دافعاً ..

وفي ميسوره ان يمحّص لنا شخصية منافس او غريم ، كما يمحّص المؤلف شخصية يريد ان يدمجها في إحدى رواياته ؛ وهنالك نستطيع ان نقف على دوافعه وحوافزه ، ومن ثم نوفر على أنفسنا الوقوع في اخطاء ، أو اتاحة الفرص للمنافس كي يصيبنا بالضرر ..

وفي ميسور الخيال ، بتوجيه الارادة وبالتعاون مع العقل ،

ان يستكشف لجهودنا ميادين جديدة ، وان يزودنا بنشاط جديد نقبل به على اعمالنا، معوضاً ما نالنا من إعياء اوما اصابتنابه الرتابة من ملل .. في وسعه ان يجد اسواقاً لانتاجنا ، ووسائل جديدة نستغل فيها مقدراتنا وإمكانياتنا ..

ولنستطرد قليلاً في تفصيل ما اجملناه ..

ولسنا نحتاج ان ننتمي إلى وجهة النظر القائلة بأن « العلم يأتي بالتجربة » . فمتى اكتشفنا ان اكثر خوفنا من الاقدام على وجه جديد من اوجه النشاط إنما مرده إلى خوف تكرار الألم الذي صادفناه من قبل حين شرعنا في المضي ، وسعنا ان نغذّ السير في طريق « التجربة والخطأ » في خيالنا ، متحاشين بذلك الألم ! في وسعنا ان نتعلم المضي قدماً في خيالنا ، ومن ثم نوفر على انفسنا كثيراً من التهور ، والعقم ، وتبديد الوقت والنشاط ..

إننا اولاً نستطيع ان نستخدم الخيال لكي نرى انفسنا وعملنا عن بعد ..

وكلنا نعلم كيف يربط الطفل نفسه ربطاً تاماً محكماً بكل ما يملك وما يفعل ، وبكل من يبدي به اهتماماً .. وإنه ليثور إذا طلب إليه ان يُشرك غيره فيما يملك، او ان يتخلى عن لعبة او دمية ، او إذا امطرت السماء في اليوم الذي ارتقبه للنزهة ، وإذا تركته امه او مربيته قبل ان يستسلم للنوم ، حسب انه قد خدع خديعة كبرى ؛ بل الواقع ان التربية في مراحلها الأولى تضع بين اهدافها تعويد الطفل ـ المركّز في ذاته بحكم المرحلة التي يجتازها ـ النظر إلى نفسه وإلى علاقاته بالدنيا والناس ، نظرة اقرب إلى الموضوعية

وإلى التجرد من الذات ؛ وإنه ليتعين علينا جميعاً ان نفعل الشيء نفسه ، ولكنا لا ننجح في ذلك النجاح المطلوب ، فإننا نظل إلى آخر ايامنا وفي نفوسنا اثر من آثار التركيز الطفل في الذات ، بل لقد يتضح في البعض هذا الاثر واضحاً جلياً ، فإذا هو يغضب او يشكو ، او يثور او يفعل غير هذا مما لا يفعله إلا الطفل ، وليس ثمة نجاح لا يتطلب علاقة وثيقة بين الفرد وبين النـــاس وما دام الامر كذلك ، فسوف تطرأ ظروف يصبح فيهـــا من الأهمية بمكان كبير ان نرى انفسنا وعلاقتنا بالمحيطين بنا في وضوح وجلاء وكل منا يمر به الوقت الذي يتعين عليه ان يحدد موقفه قائلا :

« ها أنذا .. وهذا عمـــلي .. وهؤلاء هم الذين ارجو ان أعاونهم وأن أسّرهم بعملي » ؛ وفي وسع الخيال ان يضعنـــا في الموقف الذي يمكننا من رؤية انفسنا مجردة ، ومن النظر الى علاقتنا بالناس نظرة موضوعية ، ومن تحليـــل دقائق الموقف وتفاصيله ، ومن تقييم ما فرغنا من تحقيقه وإنجازه ..

والبالغ الطفلي النفسي لا يسعه ان يرى نفسه على حقيقتها ، ولا ان يقيم ما يصنعه او ما ينجزه ، مجرداً من المبالغة في الكبرياء ، او متحرراً من الخوف والاقلال من قدر نفسه ..

ومن ثم فهو ليس في موقف يمكنه من معرفة مدى مساهمة ما يصنعه في تقدم الدنيا التي يعيش فيها ، وهو معتمد دائماً في تقييم ما يعمله او ما يحققه على اقوال الناس ، اصدقاء كانوا او غرباء ! وهو حتى عندئذ محير ، مبلبل الخاطر ، فهو لا يعير ما يسمع الا اذناً موزعة الاهتمام ، فالقسط الأكبر من اهتمامه متجه الى داخل

نفسه : إلى آماله ورغباته التي يدور فيها في حلقة مفرغة ، وهو لا ينتفع بنصح ولا بنقد ، ولا هو يسعه ان يدرك في النصح خطأ إذا كان به خطأ ، أو يستبين في النقد تفاهة ان كانت به تفاهة ..
فاذا ما تطلع - بعين خياله - الى نفسه أولاً ، ثم الى العمل الذي يريد حقاً ان يؤديه ثم الى « الجمهور » الذي يرغب في اجتلاب تحبيذه واستحسانه ، ثم عمد الى ايجاد الصلة بين هذه كلها بعضها وبعض ، وسعه ان يصون شجاعته من التبدد وذهنه من البلبلة وتقديره لعمله من النحس ..

وثمة خطأ ، بل خطر ، في ان نربط بين أنفسنا وبين العمل الذي نؤديه لمدة طويلة . وقد علمنا مما كشف عنه العلم الحديث في الأعوام الأخيرة ان ثمة مثل هذا الخطر في ربط أنفسنا بأطفالنا لمدة طويلة اذ يصبحون عندئذ عاجزين عن المضي في الحياة معتمدين على انفسهم. فالأم التي تتعلق بابنها البالغ (او حتى المراهق) تتعذب معه ومن اجله ، وتقرر له قراراته ، وتلاقي الهوان بسببه ، ولا يسعها ان تقر في حياتها وتهدأ ما لم يكن يعيش المعيشة التي رسمتها له في ذهنها ، وتتدخل في شئونه ، وتملي عليه المهنة التي يزاولها ، والصحبة التي يصاحبها ؛ مثل هذه الأم ، لم يعد ينظر اليها اليوم كما كان ينظر اليها من قبل على انها ام راشدة رؤوم !

وبرغم انه قلّ منا ، نحن البالغين، من يتصرف دائماً تصرفاً طابعه الحكمة والحصافة ، فان قلة منا ولا شك هي التي تحبذ ارتباطنا بآبائنا وامهاتنا كارتباط الاطفال.

لقد تعلمنا الآن ان مهمتنا كآباء او امهات لا تعني الا أن

نزود ابناءنا بالصفات التي تمكنهم من حياة سعيدة صحيحة رشيدة، وان نمتنع عن تقييدهم بالقيود التي تعوق نشاطهم المستقل، وان ندعهم احراراً في اختيار اصدقائهم واصدار حكمهم على الامور. بل تعلمنا اكثر من هذا ان كل بالغ، والداً كان او ابناً، ينبغي ان تكون له مصالحه الخاصة، وان هـذه المصالح هي الكفيلة برده عن التدخل غير المشروع في حياة الآخرين.. ولا يعتقد احد ان هذه العلاقة القائمة على الوعي والفهم بين الاب وابنه، التي حلت محل السلطة الديكتاتورية التي كان يتمتع بها الأب سابقاً وان كان باطنها الرحمة، اقول انه لا يعتقد احد ان هـــذه العلاقة قد قللت شيئاً من الحب السائد بين الآباء والابناء، ان لم يكن العكس هو الصحيح !

ثمة وجه شبه كبير وثيق بين العمل الذي تنتجه او تبدعه وبين الطفل. كلاهما يُحمل ويولد ويغدق عليه الحب، ويباشر بالتغذية في مراحله الاولى، وينظر اليه المرء نظرته الى جزء من ذات نفسه.. ولكنه متى كبر ونما وترعرع، فقد حان الوقت الذي ينبغي ان يستقل كل بنفسه او بشخصيته . ولو اننا شئنا ان نحصل من الحياة على اقصى متعها لوجب ان نتعلم كيف ننتقل من عمل الى آخر ومن مهمة الى اخرى. فهنالك يكون انتاج المرء اوفر، ومساهمته اكبر، فان انتاجنا لا يبلغ الا نصف مداه اذا لم نتعلم كيف نفصل بين انفسنا وبين ما صنعنا، وكيف نوجه طاقة نشاطنا الى ما يجثم في الأفق من اعمـــال .. بل نحن ميالون دائماً الى أن نتوقف لنرقب ثمار ما فرغنا من انجازه مؤخراً..

وهذا التوقف ضرورة لا بد منها الى حد ما . فنحن في حاجة الى أن نلم بتاريخ ما صنعنا وبقيمته وبثمرته ، لا لشيء إلا لنفيد خبرة ، وتعمقاً ، ونفاذ بصر .. ولكن « الوفرة » هي الطابع الذي ينبغي ان يطبع كل عمل في أي ميدان من ميادين الحياة ..

نحن إذن ، كما أسلفت، ميالون إلى أن ننتج شيئاً واحداً ، او لوناً واحداً ثم نتوقف لنتأمله ، أو لنتأمل ما يحدث له ، حتى لينتابنا العجب اذا رأينا غيرنا لا يفعل ما نفعل بل يمضي قدماً من عمل الى آخر .. وقد نحسب – خطأ – أن هؤلاء يسوقون انفسهم الى العمل سوقاً باذلين في ذلك جهداً، وواجدين فيه عناء، ولكن هذا ليس صحيحاً او لا ينبغي أن يكون صحيحاً .. وإنما الذي حدث أن الوقت والجهد والاهتمام التي ينفقها بعض الناس في التوقف لتأمل ما صنعوا أو لتلقي عبارات الاستحسان، او لسماع التعليقات والتعقيبات ، إنما ينفقها البعض الآخر في المضي قدماً فاتحين للعمل ميادين جديدة . وليس يعني هذا أن الرجل المنتج يصم اذنيه عن النقد ، كلا ، ولكنه يسمع من النقد أوجهه وأحصفه ، فقد تعلم بالتجربة أن ما ينفع ويجدي لا يملك المرء إلا أن يسمعه .. ولكنه تعلم أيضاً ألا « ينتظر » ليسمع تعليقاً ، ومن ثم فحياته أكثر امتلاء من حياة اولئك الذين لم يتعلموا متى يدعون إنتاج تفكيرهم وعملهم ، أو يدعون ابناءهم وأطفالهم أحراراً مستقلين ..

وفي وسع الخيال أن يقرب الى أذهاننا الطريقة التي يتبعها أمثال هؤلاء المنتجين وأن يبين لنا سبل محاكاتهم ..

الفصل العاشر

مبادئ وقواعد

ماذا لو كنت ممن لا بد لهم من التشجيع والتحبيذ في كل مرحلة من مراحل العمل قبل الانتقال الى الأخرى ؟ إن هذا يصعب الأمر ولا شك ، ولكن في وسع الخيال هنا أيضاً أن يخف لنجدتك ، في وسعه أن يطلعك على موقفك من سلسلة المراحل التي ينبغي أن تمر بها قبل الحصول على النتائج التي تشتهيها، وان يعلمك الصبر في الوقت الذي يوضع فيه عملك موضع الاعتبار من الآخرين ، ورباطة الجأش حتى يصدر الناس حكمهم عليك ، فإذا كان الحكم في غير مصلحتك – كما يحدث احياناً – فأمامك عندئذ احد امرين : إما ان تواجه المشكلة نفسها من زاوية اخرى لكي تصل إلى نتائج افضل، واما ان تسوق الاسباب التي تدعوك إلى الاعتقاد بأن ما صنعته هو خير ما يمكن ان يصنع ، وان تسوق هذه الاسباب موضوعية مجردة لا على سبيل الدفاع عما صنعت وحسب !

وخيرطريقة تدافع بها عن صلاحية عملك إذا احتاج الامر ان ترسم لنفسك مقدماً مجموعة من المبادىء والقواعد لكل عمل نقبل عليه . اما لو انك صنعت العمل اولاً ثم رسمت هـذه المبادىء والقواعد ، فستجد نفسك مسوقاً الى اختلاق اسباب تبرر بهـا عملك ، وقد يغيب عنك عندئذ بعدها عن الرجحان ..

وهنا ايضاً نجد الخيـال خير معوان .. فإذا شرعت في تخيل افضل نموذج ممكن للعمل الذي توشك ان تقـدم عليه ، فكيف تتخيله ، وكيف يمكن ان يكون ؟

استحضر في ذهنك خير نموذج ماثل فعلاً لعمل شبيه بما تقدم عليه .. وانظر ما هي الصفات التي يتصف بهـا ، وايها الصفات الاساسية التي لا بد منها ، وايها التي اضافها مبدع العمل الاول..

فاذا فرغت من هذا التحليل ، فارسم القواعد التي تسير عليها أنت ، بادئاً بوضع ما لا غناء عنه أولاً ، ثم ما يجعـل العمل اكثر رونقاً ، وأسهل تقبلاً ، واخيراً ، وليس آخراً ، الأشيـاء التي تضيفها أنت للعمل نابعة من ذات نفسك ، معبرة عن شخصيتك ..

وينبغي قبل أن تشرع في العمل ، أن تتخلىعن وجهة نظرك الشخصية ، وأن تنظر الى العمل من وجهـة نظر جمهورك ، أي « المستهلكين » الحقيقيين .. فمـن هو جمهورك ؟ واذا وضعت نفسك موضع فرد من هذا الجمهور ، فما الذي تود أن تراه وتلمسه في العمل الذي يقدم لك ؟ فاذاوسعك، مستعيناً بالخيال،أن تضع نفسك موضع جمهورك الذي ترجو أن تحقق نجاحك عن طريقه ، استطعت أن تضمّن عملك دائماً المميزات التي تجعله مفضلاً مرغوباً ..

وخذ مثلاً قريباً منا جميعاً .. لماذا ترى جرت العادة فيما مضى على صنع مواقد الطهو و « طشوت » الغسيــــل منخفضة قليلة الارتفاع ، واستمر صنعها على هذا النحو برغم العناء الذي كانت تسببه لربة البيت التي كانت تضطر للانحناء عليها ؟

لم يكن لذلك من سبب سوى قصور الخيال ! وفي اللحظة التي ألهم فيها صائغ هذه الادوات ان يجعل راحة مستهلكي أدواتــه نصب عينيه ، حدثت ثورة في ادوات المطبخ !... إن مثل هذه التحسينات تلفت نظرنا لأول وهلة ، فاذا نحن نقبل جميعـاً على شرائها ، لا بدافع مخالفة الشائع المألوف ، ولكن لأن محاسنها ومنافعها ظاهرة جلية للعيان . ولن تجد انساناً يدخــــل امثال هذه التحسينات المحببة إلا ان يكون متخذاً من الخيال معواناً في عمله ، جاعلاً من دأبه تحليل « الشكل » التقليدي الى عنـــاصره الأولية ، قادراً على ان يضع نفسه موضع جمهوره .

على أن توخيك إرضاء جمهورك لا يجب أن يطغى على ما عداه من العوامل في سعيـك لرسم النموذج الذي تنسج على منواله في عملك ، فاذا جعلت نصب عينيك إرضاء الجمهور وحسب ، فقل أن يكون لعملك قيمة ، فلا بد أن تكون لك فكرة تنقلهــــا الى الناس ، ورسالة تحققها بينهم ؛ وإنما تصيب النجاح حقاً اذا انطوت فكرتك عن النجاح على تقدير لما يرغب فيه الناس ويريدونـه .. وعندئذ فكل ما تتعلمه ـ عن طريق الخيال ـ عن جمهورك إنما يكون لمصلحتك وفائدتك .. فاذا وقفت على مشاربهم وأذواقهم، وسعك أن تمنحهم ، لا ما يرغبونه ويريدونه ، وإنما أفضل منـه

بكثير .

فاذا ما انتهيت من تقدير هذه العوامل كلها ، وألقيت ضوءا كافياً على المثال الذي تنسج على منواله في عملك قبل الشروع فيه ، فانك ينبغي ان تعيد نظرك فيه ، بأن توجه لنفسك بضعة أسئلة لا بد منها ، كهذه :

ـ هل ما صنعته يضارع افضل عمل مماثل ؟

ـ هل يتصف العمل بجميع الصفات الأساسية ؟

ـ هل أضفت اليه ، على سبيل المساهمة في التحسين ، قيمة خاصة ؟

ـ هل يبدو جذاباً ملائماً لجمهوره ؟

ـ هل أدخلت في اعتباري انه ربما كان هناك جمهور آخر لهذا العمل غير جمهوره المعروف ، فعملت على اجتذابه ؟

ـ ماذا يمكن ايضاً ان اضيفه او ازيده قبل ان اخرجه ليشق طريقه بين الناس ؟

وحبذا لو انك اتخذت هذه الاسئلة مقياساً لا لعمل تبدعه وتنتجه وحسب ، بل مقياساً لكل عمل تؤديه في حياتك اليومية ايضاً !

●

وإذا كنت صاحب عمل ترجو له النجاح ، ففي وسع الخيال ان يعينك في ناحية اخرى : بأن يطلعك على حقيقة صلاتك بمن هم حولك . فإذا اطلعت على حقيقة هذه الصلات ، وسعك ان ترسم لنفسك مبادىء تجنبك كثيراً من مواضع الزلل ، وعديداً من اسباب السخط والعناء في عملك اليومي .

أتراك شاهدت نفسك يوماً في مرآة مرتفعة اظهرتك كما اظهرت كل من يجلس حولك ؟ تلك هي الصورة التي نريد ان تتمثلها في خيالك ، لنفسك ولمن حولك جميعاً . فعندئذ تتبين ما تفعله وما لا تفعله ، او ما لا تفعله على الوجه الأكمل ، او ما يجب ان تفعله لتغدو صلاتك بالناس على خير ما يمكن ان تكون عليه ..

وكل اولئك الذين يعتقدون انهم مرهقون بالعمل ، إنما هم في الواقع يعملون اقل مما يسعهم ان يفعلوا إذا وسعهم ان يتبينوا في خيالهم ما الذي يتوقع منهم . وإنما يتأتى الارهاق من الانشغال بعشرات التفاصيل التافهة ، او من القلق واللهفة ، خشية ان يظن انهم لا يفعلون ما يجب ان يفعلوا ، فإذا هم تبدو عليهم مظاهر الانهاك والانفعال ، وإن كانوا في الواقع لاينجزون إلا القليل.

ومثل هؤلاء ـ واقصد مثلهم فرائس بين مخالب ارادة الفشل ـ اولئك الذين يدأبون على الاضطلاع بأكثر مما يطيقون ، وان كانوا على نقيض سابقيهم ، لا يشكون ارهاقاً .

هؤلاء في الأغلب يسعون بذلك إلى تغذية غرورهم وإحساسهم بذواتهم ، وانه لشيء جميل حقاً ان يبسط المرء نشاطه إلى آخر مداه ـ وهو شيء لا يبلغه الاكثرون ـ ولكنه حمق وجنون ، بل قتل للنفس وانتحار ، ان يتجاوز المرء اقصى طاقته !

فإذا حددت في خيالك عملك ، ودورك ، وميدانك ، سواء بوصفك فرداً ، او عضواً في جماعة ، فاشرع في العمل على الفور ، وخذ نفسك بالنظام والمران حتى يبلغ نشاطك اقصاه ..

الفصل الحادي عشر

اثنا عشر تمريناً

ثمة وسائل عديدة يمكننا بها ان نكسب العقل حدة ومرونة في آن معاً ، وهما صفتان لازمتان لكل من يتطلع الى النجاح . ونحن جميعاً نمتثل في يسر وسهولة « للروتين » الذي ييسر لنا ان ننجز عملنا بأقل قدر ممكن من الجهد ، وبأقل قسط ممكن من الاهتمام الواعي ، وهو شيء لا غبار عليه البتة ، اذا كنا نستغل وقت الفراغ الذي يتيحه لنا « الروتين » في اغراض نافعة مثمرة، ولكن الحقيقة الواقعة اننا لا نفعل ! بل نحن نطبق « الروتين » على جوانب حياتنا جميعاً ، فاذا نحن نشب جامدة عقولنا وأرواحنا قليل حظنا من التجربة ما دمنا مسوقين بالعادة ولا شيء غيرها !.

ونحن ندع للعادة ان تتولى امر نشاطنـــا اليومي ، وتؤدي أعمالنا مستخدمين جزءاً وحسب من العقل، دربناه ليعالج مشكلات محددة معينة (وقد دربناه في الأغلب مكرهين ساخطين !) فاذا جدت لنا فكرة جديدة ، أو طرأ لنا موقف لا عهد لنا به، رحنا نتلمس أوجه الشبه بينه وبين ما سبقه ، ثم شرعنـا نتصرف وفق

الاحساس أو العاطفة التي يبتعثها هذا الشبه !

بل حتى اولئك الذين يبتغون رفع مستوى اذهانهم ، او تقويم انفسهم ، قل ان يستخدموا اكثر من مجموعة واحدة من العضلات الذهنية ، إذ يجمعون عدداً من الحقائق عن هذا الموضوع او ذاك وقد يعتبرون انهم أصابوا مستوى رفيعاً إذا عرفوا شيئاً عن أديان الهند ، أو أعمال « تشارلس ديكنز » أو طيور أمريكا !

ولا ضرر في ان يلم المرء بهذه المعلومات على سبيل رفع مستواه ولكن الضرر في ان يستكين لهذا الذي صنعه على اعتبار انه نهاية المطاف !.. فجمع المعلومات وجه واحد وحسب من أوجه النشاط الذهني، واذا اقترن بتدريب الذهن على اصدار حكم صادق مستخلص مما جمع من معلومات ، فهو وجه نافع قيم ولا شك .. ولكن هذا وحده ، لا يدرب العقل الى الحد الاقصى ، ولا يجعل منه اداة طبيعية نافعة تسعف وقت الحاجة ..

وحتى أولئك الذين يعتبرون انفسهم غاية في الجد والاجتهاد، لم يبلغوا بدورهم – في الأغلب – المستوى الذهني الذي يتيح لهم ان يستخلصوا اقصى المتعة من الحياة ؛ ومن اسباب ذلك ما اورده الدكتور « الكسيس كاريل » في كتابه الرائع «الانسان ذلك المجهول (١) » إذ قال : « إن ثمار المدنية ليست ثماراً مفردة كل منها قائمة بذاتها ، ولكنها متصلة بعضها ببعض ، متداخلة بعضها في بعض ، مثال ذلك انه لم يعد يتعين علينا ان نعاني من شدة الحر ومن شدة البرد في قوتنا ، فيتوفر الطعام مرة ويشح

(١) Dr. Alexis Carrel, « Man The Unknown »

اخرى .. ولم يعد يفرض علينا ان نقضي الليل في الظلام ، فضوء الكهرباء اصبح يحيل الليل نهاراً .. ولم يعد حتماً علينا ان ننظر بداخل انفسنا بقصد التسلية والترفيه ، فالصحف واجهزة الراديو تقوم على تسليتنا وإمتاعنــــا . والرجل السليم الصحيح يستمتع بقدرة عظيمة على التكيف والملاءمـة ، وإنه ليبدو ان تدريب وظيفة التكيف ،لتؤدي عملها على اتم وجه امر لا غناء عنه إذا شاء الانسان ان يستمتع من الحياة بأوفر ثمارها .. »

ولكننا أذنّا لأنفسنا بأن تضعف وتتراخى ، وان تتخلى عن إمكانياتها ومقدراتها ، وان تفر من المسئولية كلما أمكن ؛ فعلنا ذلك بدلاً من ان ندرب انفسنا على تحقيق ما هي خليقة بتحقيقه ، حتى غدت كلمة « تدريب » وحدهـــا كافية لبث الخوف في نفوسنا !

وتدريب العقل يبلغ به أوج الكمال ، كما يبلغ جسم الرياضي أوج الكمال بالتدريب المستمر ، ولكننا اولاً يجب ان نقف على حالة الذهن قبل الشروع في تدريبـــه .. فكنتيجة لذلك نعلم احتياجاته ، فلعله محتاج إلى القوة في هـذا الجزء والى المرونة في ذاك ، إلى الانطلاق في هذا الموضع وإلى الدقة في ذاك ؛ ونحن نريد ان نكمل نقصه ، وننمي وظائفه إلى الحد الذي يمكننا من الإفادة منه إلى الدرجة القصوى ..

ولكي نفعل هذا لا بد من سيطرة نفرضها على انفسنا . وهو امر يصعب ولا شك على ابناء هذا الجيل الذين اضعفهم امتثالهم لوسائل الراحة واسباب التراخي الكثيرة المنوعة ، وإنك لتجـد

اكثرنا يرتعد لمجرد كلمة «الكبح» او «المنع» او «السيطرة»؛ فقد اعتدنا ان نعيش مدفوعين بالعادة والاحساس، معتبرين ان هذه هي الحرية، في حين ان الحرية – كما قال ارسطو – هي «الخضوع لما يفرضه المرء على نفسه من قواعد ومبادىء»، وهو قول يصدق الآن كما صدق منذ ألفي عام مضت!

وإذن ينبغي لنا ان نعمل على بث القوة في حياتنا، بحيث يصبح في مقدورنا ان نكف عن وجه من أوجه النشاط لننتقل إلى وجه آخر، وبحيث يسهل علينا ان نغير متى شئنا الوسيلة التي نواجه بها مشكلاتنا، وان نغير الجهد الذي ننفقه في اعمالنا فنزيده او نقلله كيف شئنا، وينبغي ان نفعل ذلك كله في حنكة ودراية ومهارة كتلك التي يبديها لاعب التنس البارع ليواجه بها خطط خصمه العنيد!

ولو اننا كنا نعرف، يوماً بعد يوم، الضرورات او الاعمال الاساسية التي ينبغي ان ننجزها، لوسعنا ان نعد لها انفسنا سلفاً، ولما كانت ثمة حاجة لقوة ولا لمرونة تتصف بها عقولنا، ولكن الامر ليس كذلك؛ ومن ثم كان لزاماً ان نعد انفسنا لكل احتمال ولكل طارىء عوضاً عن مجرد مواجهة امر او امرين ألفنا ان نواجه مثلها، ولم تعد تستدعي مواجهتها عناء؛ ثم نتخبط في سائر الامور كالأعمى الذي يتلمس الطريق!

والتدريبات التى اقترحها فيما يلي، قد استقيتها من كافة انحاء العالم! فقرّاء الفلسفة والأديان سيجدون في التدريبات شيئاً صادفهم في قراءاتهم من قبل، شيئاً أزجاه الحكماء في عديد من

بلاد الارض ، فثمة تدريبات مستقاة من الهند ، ومن اسبانيا ، ومن اليونان ، ومن الصين ، وبعضها مألوف في كل بلد له تراث ذهني او روحي كالتدرب على فترة من الصمت مثلًا !

وليس في هـــذه التدريبات شيء غير هادف ، فكل منها يستهدف تقوية وظيفة من وظائف العقل ينبغي ان تنمى إلى الحد الأقصى ، إذا كان المرء ينشد ان يحيا حيـــاة هادئة يوجه دفتها هو نفسه ..

وقد لا تفيد هذه التدريبات كلهـا ، كل الناس على السواء ، ولكني أنصحك ، قبل ان تنتبذ احدها على اعتبـار انه لا فائدة منه لك ، ان تختبر نفسك لتتحقق من انك لا تنتبـذه لمجرد انه يكبح نزوعاً لا قبل لك بكبحه ! وقـــد تجد اكثرها صعب التطبيق في إحدى المراحل ، تماماً كالصعوبة التي تتجلى في تصلب عضلة من عضلات الجسم متى اقبل المرء على تدريب هذه العضلة ، ولكنك لا تنمي العضلة مع ذلك ما لم تخضعهـا لنوع من انواع المقاومة ، ولا تدرك ان تدريبك يؤتي ثمرته ما لم تحس الصعوبة والألم احياناً ، فذاك خير دليل على ان التـدريب يمضي لتحقيق غايته ؛ والحال كذلك في التدريبات الذهنية ، فإذا احسست ان احدها لا يثير فيك احتجاجاً نتيجة لانحرافك عن العادة إلى لون جديد من الوان النشاط ، فأنت إذن في غير حاجة لهذا التدريب ، ولك عندئذ ان تستبدل به آخر يفرض عليك نوعاً من الجهـــد وقوة الاحتمال ..

التمرينات الاثنا عشر

- ١ -

يتلخص التمرين الأول في أن تقضي ساعة من يومك لا تقول فيها شيئاً إلا أن تجيب على سؤال وجه اليك مباشرة !..

وعليك أن تباشر هذا التمرين وسط مجتمعك المعتاد ، وخلال حياتك العادية اليومية دون أن توحي لمن حولك بأنك مكتئب مستغرق في خواطرك ، أو أنك قد ألم بك صداع !..

فوجه البراعة التي تظهرها في هذا التمرين أن تبدو كما تبدو كل يوم ، وتتصرف كما تتصرف كل يوم ، ولكنك تسيطر على لسانك خلال هذه الفترة المحدودة !..

فإذا سئلت فأجب على قدر السؤال ، لا تبتر الإجابة ، ولا تستطرد الى ما يتفرع عليها ، ولا تحاول أن تستدر بإجابتك سؤالاً آخر !..

ولسوف يجد اكثر الناس — لفرط عجبهم — أنه تمرين شاق ! ولسوف يبدو هكذا حتى للمقتصدين في القول بطبعهم !.. فنحن جميعاً ميالون الى الإنسياق وراء الكلام اذا ما التقينا بصديق ،لا لهدف إلا تأكيد صداقتنا ومودتنا !

ولهذا التمرين قيمة كبيرة ، وله ثمار مجدية في اكثر الأحيان ، وإن اختلفت شكلاً ؛ بل لعله لم يخرج اثنان مارسا هذا التمرين برد فعل متشابه ؛ فرد الفعل يختلف باختلاف طبيعة الاشخاص ومزاجهم ! على أن اكثر ممارسي هذا التمرين سيلمسون لاول وهلة — وهم في صمتهم — أننا ، نحن المتكلمين ، قل أن نقول ما نعني في أول عبارة نفوه بها ! ثم نفطن الى ذلك بما نراه مرتسماً

على وجوه من نحدثهم من تعبير ، فنحاول مرة اخرى ، ونصمت لحظة ، نقلب فيها الأمر في أذهاننا ، ثم نصدر عبارة اخرى أوضح من سالفتها !.. ولكن ما قلناه في اول الأمر ولابسه الغموض يظل ماثلًا في اذهان محدثينا يطبع المعنى بطابع يشوبه الإبهام !

وقد حدثني رجل جرب هذا التمرين أنه لاح له في اول صمته كأنه ليس موجوداً ! ثم اعقب ذلك احساسه بأنه — وهو في صمته — يملأ جو المكان ويشرف عليه إشراف المحايد المجرد !.. وكان قبلًا اذا تكلم أحس أنه في مركز الدائرة ، فلما صمت احس انه خارجها.. وحين كانت تنتهي فترة صمته كان يحس انه في مركز الدائرة أحيانا ، وعلى حدودها احيانا ، وخارجها إطلاقا أحيانا أخرى..

وحدثني آخر بأنه حين بدأ اصدقاؤه يحسون منه الصمت سلكوا معه مسلكاً غريباً ، فقد انتاب اثنين منهم شعور بالقلق وعدم الاستقرار : أولهما اشتط في هذا الشعور حتى وضح عليه جلياً ، والآخر تحول شعوره الى عداء سافر ، حتى اتهم صديقه الصامت بأنه « متكبر ، متعال » !

وكان معهما صديق ثالث انغمس في الكلام والثرثرة انغماساً شديداً كأنما ليحفظ التوازن ويعوض عن صمت صاحبه !

وحدثتني امرأة بأنها لم تحرز نجاحا في حياتها قدر ما احرزت حين جلست في « شلة » من صديقاتها صامتة تبتسم !.. فقد كان صمتها هذا اشبه بمغناطيس جذب اليها اهتماما لم يكن تجذبه ثرثرتها.. على ان كل من جربوا هذا التمرين اتفقوا في شيء واحد ، ذلك انه حين انتهت فترة الصمت أحسوا احساسا بالسطوة والمقدرة يملأ

نفوسهم !.. فلما عادوا الى الكلام ، عادوا اليه وهم أوضح ما يكونون عبارة ، وأقرب ما يكونون الى الهدف ، واكثر ما يكونون اطمئنانا الى أن في ميسورهم أن يعودوا الى الصمت متى شاؤوا !.. وقد افضت الي صديقة جربت هذا التمرين ، بأنها وسعها في خلال صمتها أن تفهم سر قول « ميرديث » : « أن أشد ما نخشاه من الله صمته لا غضبه » . !

- ٣ -

تعلم ان تحصر تفكيرك مدى نصف ساعة من كل يوم في موضوع واحد .

وبرغم السهولة التي قد تلوح على هذا التمرين ، إلا أنه كسابقه صعب التنفيذ . وافضل ما يفعله المبتدىء ان يتدرج في الوقت الذي ينفقه في التفكير ، بادئاً بخمس دقائق كل يوم ، ومنتهياً إلى نصف الساعة .

على انه يجب ان يسبق ذلك تفكير فيما تختار من اشياء او موضوعات تصب عليها تفكيرك . واي شيء يفي بالغرض ! زهرة ، زجاجة حبر ، وشاح مما تضعه النساء على اكتافهن !.. ولا تجعل هذا الشيء امام عينيك ، وإنما تمثله في ذهنك حتى تكاد تراه امام بصرك ؛ فإذا كان ما اخترته زهرة ، فصفها لنفسك كما تحسها كل حاسة من حواسك ، فإذا فرغت من هذا ، فاستطرد إلى كيفية نموها ومكانه ، وإلى اي الاشياء ترمز ، وإلى اوجه استخدامها ؛ ثم انتقل من هذه الاشياء المادية الملموسة إلى اشياء عقلية معنوية ..

وصب تمريناتك في اول الامر على اشيــاء تروق لك ، ثم تدرج من هــذا إلى ان تضع اصبعك حيثما اتفق على كلمة في صحيفة او كتاب وتجعل هذه الكلمة موضوع تفكيرك ، او إن لم يكن للكلمة معنى ، فالعبارة التي تضمنت الكلمة ..

وإنه ليكون اجدى عليك ان تبدأ هذا التمرين ومعك ورقة وقلم ، كي تخط على الورقة علامة كلما آنست من تفكيرك انزلاقاً عن الموضوع الذي صببته عليــه .. ولو انك تسرع إلى ملاحظة انزلاق تفكيرك ، لألفيت في نهاية الفترة المحدودة ان الورقة ملأى بالعلامات ، على الاقل في الايام الاولى لممارستك التمرين ، ولكنك ستلمس ايضاً انك تمضي نحو التقدم بخطى حثيثة ، وقــد تبلغ الذروة احياناً بعد اسبوع ، واحياناً بعد شهر .

واحسب ان قيمة هذا التمرين واضحة متجلية لكل من يأمل في ان يعمل عملاً اصيلاً مبتكراً . ومن الأحصف ان تزاول هذا التمرين — في مبدأ الامر — وانت مختل بنفسك ، فإذا تقدمت فيه ، ففي ميسورك ان تمارسه حتى وانت وسط جمع من الناس ، او وانت في الطريق عائداً إلى بيتك !

ولعلك ادركت من هــذا التمرين انه يستهدف « التركيز الذهني » الذي طالما حثتنا المدرسة على تربيته في نفوسنا ، ولعلك وقد شرعت في هذا التمرين ، تدرك ان المدرسة لم تفلح في حملنا على ذلك ! ولهذا التمرين فوائد جمة .. فالذي يبرع فيه يسعه ان يتعلم لغة اجنبية في امد قصير ، كما يسعه ان يفكر تفكيراً متزناً مركزاً ويخلص إلى النتائج مبكراً .

- ٣ -

حاول ان تكتب خطاباً خالياً من ضمير المتكلم « انا » في اي شكل من اشكاله اللغوية ؛ واجتهد برغم ذلك ان تجعل الخطاب رقيقا جذابا ، فإذا رأى متلقي الخطاب فيه غرابة ، فقد اخفقت في هذا التمرين !..

ويهدف هذا التدريب إلى ان يطلعنا على حقيقة انفسنا ، ويحملنا على ان نراها من زاوية محايدة . ولكي تكتب خطابا جذابا من هذا النوع ينبغي ان تتجه بتفكيرك إلى خارج نفسك ، وان تتحرر من شئونك ومشاغلك لفترة ، فذلك يحفزك إلى العودة إلى نفسك مرة اخرى املأ بالانتعاش ..

- ٤ -

اخل حديثك مدة خمس عشرة دقيقة كل يوم من ضمير المتكلم « انا » وكل ما هو منسوب إليه ..

- ٥ -

اكتب خطابا مطبوعا بطابع النجاح والتفوق !.. وغير مسموح لك في هذا التمرين ان تتجاوز الحقيقة ، او ان تنتحل شخصية الناجح .. وإنما اتجه بذهنك إلى المظاهر واوجه النشاط التي نجحت فيها حقاً ، واجعلها محور خطابك ، في دقة وامانة ، وضمن خطابك ما يشتم منه انك في لحظة كتابته لا تحس شيئا من ثبوط العزيمة ، او اليأس ، او خيبة الأمل ..

وثمة هدفان يستهدفهما هذا التمرين . اولهما انه من الميسور ان يتحول المرء من الجانب السلبي اليائس إلى الجانب الانشائي المتفائل .

وبرغم ما قد يبدو لك في اول الامر انه من العسير ان تجد من اوجه تفوقك ونجاحك ما تضمنه خطـــابك ، فسوف تكتشف عاجلًا ان ثمة عدداً من شئونك يمضي على ما يرام وفي الاتجـــاه الصحيح ، ولكنك تجاهلتها زمناً حين ركزت بصرك على أوجه الإخفاق ومبـاعث اليأس والخيبة..

والهدف الثاني ، وهو الأهم ، أنك بارسال هـذا الخطاب الى كل من تعرف سوف تزيل عقبة كأداء تقف دونـك والتصرف الناجح الذي تزمع الإقبال عليه ..

ونحن جميعاً ميالون الى ان نعمد الى كتابة الخطابات في أحلك ساعاتنا !.. اذا أحسسنا الوحدة او الوحشة بجثنا عن اقلامنـــا وشرعنا ندبج رسائل لأعزائنا نبثهم فيها همومنـا ، وشكاوانا ، وأوجه شقوتنا وإخفاقنا ، طمعا في أن يرسلوا الينـا بدورهم ما يعزي ويوامي !.. وقد تصلنا خطابات المؤاساة ونحن في قمة الروح المعنوية ، ولكن حتى هناك ، ليس من يسعه ان يغالب إحساسه بالحسرة على نفسه وهو يقرأ التعزية !

ومن ثم فنحن خليقون في اكثر الاحيان بأن ننزلق بـدافع هذه الحسرة الى سابق مشاعرنا السلبية المثبطة للعزائم .. وتفسير الامور عندئذ في حلقة مفرغة ، فنرسل الى الراسلين نبثهم مزيداً من الشكوى ونجلس في انتظار المزيد من عزائهم !

وعطلة كاملة من الاكتئاب والتحسر عـلى النفس ضرورة لا بد منها للنجاح .

- ٦ -

قبل أن تدلف الى غرفة تضم عدداً من الناس ، توقف لحظة على عتبتها لتحدد صلتك بكل شخص فيها !

فمن هذا التمرين يسعك أن تتعلم درسا قيماً : ذلك أن تحيط بكل من في الغرفة بنظرة واحدة ، فتتمثل في ذهنك التزاماتك حيال كل منهم وأوجه المصلحة التي قد تعود عليك من أيهم او بعضهم ، والعلاقة التي تربطك بكل منهم ..

وعسى ان يقول قائل ان مثل هذا التفكير السابق قد يحدو بالمرء إلى ان يغدو صناعياً متكلفاً في تصرفاته مع من تضمهم الغرفة ، ولكن هذا الخطر ينتفى إذا ادركت من نظرتك المناسبة التي جمعت هؤلاء ، فأنت خليق عندئذ ان تتصرف بوحي هذه المناسبة ، بل إنك بذلك تزيل خطر اندفاعك إلى الغرفة فتأتي بتصرف لا يليق بالمناسبة ، كأن تتطرق إلى موضوع لا يتفق معها ، او تخطىء التحدث إلى صديق قد يعود الحديث معه عليك بفائدة ..

وصحيح اننا مهما نختط حياتنا اختطاطاً واعياً ، فهناك دائماً « هامش » كاف يقينا من خطر افتقاد البديهة إذا جد جديد ، او طرأت مفاجأة ، ولكن خيراً من ذلك ان نجعل حياتنا كلها في قبضة سيطرتنا إلى اقصى حد ممكن ..

- ٧ -

فإذا حذقت التمرين السابق ، فانتقل إلى آخر ، طالما تناهى إلينا على شكل نصيحة قديمة موغلة في القدم ، تلك هي : دع

شخصاً تعرفت إليه لفورك يتحدث عن نفسه دون ان يفطن إلى انك تحمله على هذا أو تدفعه إليه ..

وسوف يقتضيك هذا ان تكون كيّساً لبقاً في فتح الموضوع، سواء بكلمة مجاملة ، او بتوجيه سؤال يستدرجه إلى الحديث عن نفسه ؛ والبراعة هنا ان توجه المجاملة او السؤال بحيث لا يستلزم جواباً مبتسراً ، بل يقتضي الإفاضة والإسهاب ..

ولسوف ترى عندما يشرع الصديق الجديد في الحديث انك تحس بانجذاب اليه ، فإذا كنت عطوفاً خصب الخيال ، فسوف تحس انك مستغرق في حديثه استغراقاً تاماً ، ولا تشعر إلا وقد سقطت عنك آخر آثار الشعور بالذات .. وقد لا يدعوك الصديق الجديد بدوره إلى الحديث عن نفسك ، ولكن ذلك لن يهمك ، فقد اتسع بحديثه افقك ، واكتسبت به معرفة جديدة عما تصنعه الدنيا بالناس !.. فاذا طلب اليك أن تتحدث عن نفسك فسوف تدرك عندئذ الى أي مدى تتحدث ، وعم تتحدث ، وقد ألممت من حديث صديقك بميوله ومشاربه ..

— ٨ —

ثم اليك عكس التمرين السابق ، ولعله أكثر منه مشقة ، ووجه المشقة هنا هو أنك تأتيه عامداً : تحدث عن نفسك ، وعن ميولك واتجاهاتك دون أن تشكو أو تتفاخر ، و إن أمكن فدون ان تصيب محدثك بالسأم !... ومن ثم ينبغي ان تثير شوق المستمع اليك الى تتبع حديثك ..

وسوف يثبت هذا التمرين انه ذو فائدة كبرى لأولئك الذين

اعتادوا الإكثار من الحديث عن انفسهم !.. فهو سيجسم لهم « المحنة » التي يواجهون بها اصدقاءهم في كل مناسبة !... ففي خلال هذا الحديث العامد المنصب على النفس ، سوف تتجلى للمتحدث كل علامات الملل ، ونفاد الصبر ، والرغبة في الانتقال الى موضوع آخر ، وهي العلامات التي يحس بها الطرف الآخر ، ويفوت علينا ادراكها في غمرة استغراقنا في الحديث عن انفسنا !.. ولن يملك المرء بعد مرتين أو ثلاث يزاول فيها هذا التمرين إلا ان يخلي بينه وبين التمرين ، كما يخلي بينه وبين نقطة ضعفه !..

على أن لهذا التمرين فوائد اخرى ، فسرعان ما يتضح للمرء ان الحديث عن التوافه والامور الشائعة المألوفة ، والحوادث المتكررة في حياته يفضي الى بث الملل في نفس السامع ، في حين انه لو تطرق الى تجارب أصيلة ، او عمل جديد مستحدث ، او امر يحرك الخيال ، فانه على النقيض يجتذب اهتمام السامع وشوقه الى تتبع حديثه ، وربما يستخلص المرء من هذا أن يجعل دأبه توسيع ميدان تجاربه ، والإقدام على اعمال تتسم بالإصالة والحداثة ، وإعمال خياله فيما يطرأ له في حياته اليومية من امور.. وربما ينتهي المرء من هذا التمرين الى نبذ الحديث المعاد المألوف عن آخر تطورات مرضه ، او عن « شقاوة » اطفاله ، او عن ذكاء كلبه المدلل ، او عن احدث أنباء سوء الحظ الذي مني به !.. فاذا جمعتك المناسبة بشخص ما زال عبداً في حوزة هذا الضرب الممل من الحديث ، فمتى جاء دورك في الكلام ، فاعرض لموضوع يتسم بالعمق والأصالة ، فاذا آنست منه عزوفاً عن

الخوض في هذا الموضوع فمردّ الامر إليك ، وانت الذي ينبغي ان تقرر ما تفعله حيـال هذا الشخص !

وقد تكتشف ان بين اصدقائك من قربتهم إليك ، لا لشيء إلا لتنغمس معهم في الحديث عن التوافـه بين الحين والآخر ، ولا شيء سوى هذا .. ومن ثم فانسحابك من مثل هذه الرابطة، ورفضك تبديد طاقتك ووقتك سدى ، دون ان تؤذي مشاعر الطرف الآخر ، التزام يقع على عاتقك .. فإذا كنت انت الذي نشد هذه الصداقة في لحظة ضعف، فمن واجبك ان تحاول تحويل هذه الصداقة وجهة اكثر إيجابية واقوى رابطـة ، فإذا اخفقت كل جهودك في هـذا السبيل ، فانت في حل من نبـذ هـــذه الصداقة التافهة .

- ٩ -

إذا كنت معتاداً على « لازمة » مُعوّقة من لوازم الحديث الشائعة كتكرار كلمة « اقصد .. » او « الحقيقة .. » او « هل اخـــذت بالك .. » او « هل انت فاهم .. » او ما إليها من « اللوازم » الشائعة في التعبير ، فإن ازالة هذه « اللازمة » يحتاج إلى مُعين !.. ابحث عن صديق مقرب إليك لا تستشعر حرجاً في التحدث إليه بأي شيء ، وقل له انك تكثر من استخـــدام « لازمة » او اكثر من لوازم التعبير ، واطلب معاونتـــه في الخلاص منها ..

وكل ما يفعله هذا الصديق ان يحضر معك حديثاً إلى شخص آخر ، ويشير إليك إشارة خفية كلما جرى لسانك « باللازمة »..

وقد يتعثر مجرى حديثك عندئذ ، وقد لا تتمالك نفسك من الضحك ، ولكنك على مر المحاولة ستزداد سيطرة على « لازمتك » .. اللهم إلا ان تكون مستمسكا بها !

- ١٠ -

اختط لنفسك برنامجاً يستغرق ساعتين من ساعات يوم معين ، وامض خلال هاتين الساعتين وفق البرنامج بدقة .. فاذا كنت أنت المتحكم في عملك ، فاختر أي يوم يحلو لك ، واذا كنت ذا عمل نظامي ، فاختر يوم عطلتك لمزاولة هذا التمرين .. وتوخَّ في البرنامج أن يكون جزء منه بما جرت عليك عادتك ، والجزء الآخر مخالف لما جرت به عادتك ، كما يلي مثلاً :

من ٧/٣٠ – ٨ صباحاً الإفطار
من ٨ – ٨/٢٠ صباحاً قراءة الصحف
} أو كما اعتدت

ثم من ٨/٢٠ – ٩/٢٥ ترتيب الكتب أو الصور التي تقتنيها
ومن ٩/٢٥ - ٩/٣٠ القيام بمكالمة تليفونية طال تأجيلك لها او الخروج للنزهة
} على خلاف ما اعتدت

وليس المهم في هذا التمرين ان تعقّد بنود البرنامج او تكثر منها ، ولكن المهم ان تتحول من بند إلى الذي يليه في الدقيقة التي حددتها بالضبط !.. فإذا كنت مثلاً ، لم تتم قراءة الصحيفة في الموعد ، فذاك امر يؤسف له ، ولكنك ينبغي ان تنحيها متى جاء وقت تنحيتها ، وكذلك الحال في سائر بنود البرنامج ، لا

ينبغي ان يستغرق احدها اكثر من الوقت الذي رصدته له ،ولو لم تكن قد انجزته ..

على انه ينبغي ان يكون واحد من بنود البرنامج على الاقل، مما يلذ لك ويصادف من نفسك هوى ..

ويستهدف هذا التمرين هدفين : الاول ان نشعر انفسنا اننا مقيدون بأوامر ، والثاني ان ندرك كم نسيء استخدام الزمن او نفقد الاحساس به كلما هممنا بصنع شيء !..

ثم ينبغي ، لكي نصيب الثمرة المرجوة من هذا التمرين ، ان نتدرج من ساعتين إلى ثلاث ، ثم إلى اربع ، حتى ننتهي اخيراً إلى ان نختط لأنفسنا برنامجاً يملأ ثماني ساعات من اليوم ،على الاقل ، بالعمل المثمر .. وقد يميل البعض إلى وضع برنامج لليوم بأكمله ، ولكننا لا نرى ان في الامكان التقيد بمثل هذا البرنامج ، ومن ثم فمن العبث اختطاطه .. يكفي يوم او يومان من كل اسبوع نقضي معظمها وفق برنامج معين لكي نتعلم قيمة الوقت وما يمكن ان نصنعه فيه إذا لم نبدده هباء ..

وفي تبديد بعض الناس الوقت هباء ، يقول العالم النفسي « الدكتور بول باوزفيلد » : « إن من علامات الشخص المركز في ذاته انه لا يستطيع ان يحدد كم من الوقت يستلزمه عمل معين. فهو يعتقد ان الدنيا تدور في فلكه ، وانه يتمتع بقوة سحرية كفيلة بارجاع الشمس والقمر عن دورانهما ، ثم يمضي في الحياة متعجباً كيف لا يلتقي به الوقت في منتصف الطريق !.. إنه دائماً متأخر عن مواعيده ، متخلف في تنفيذ تبعاته والتزاماته ،

يقبل من الاعمال اكثر مما يقدر على ادائه ، ويوافق على دعوات لا يتسنى له تلبيتهـا .. وهو إما ان يدرك خطأه ويعمل على تلافيه ، او ينتهي نهاية سيئة » !..

- ١١ -

ولعل هذا اصعب التمرينات جميعـاً . واعلم ان الكثيرين سيعزفون حتى عن مجرد محاولتـه .. وهو اختياري ، والقيمة المستفادة منه تقوم على انه اختياري لا جبر فيه ولا قسر .. على ان المرء لو كان راغباً صادق الرغبة في ان يعيش حيـاة أحفل وأملأ ، وأخضع لسيطرته وإرادته ، فلا شك عندي انه سيقبل عليه ، وسيجتني منه فوق الفائدة المرجوة متعة ومسلاة ..

وأحسب أن أكثر من يفيدهم هذا التمرين ، أولئـك الذين يعيشون في وحدة أو فيما يشبهها ، او يعيشون حياة خـالية من الأوامر والقيود ، وقيمة هذا التمرين بالنسبة لهم أنه يخرجهم عن سياق الحياة المعتادة التي يعيشونها ، ويعلمهم ألا يكونوا اسرى في قبضة عاداتهم ..

استحضر اثنتي عشرة قصاصـة من الورق ، واكتب على كل منها أمراً معيناً ، توخّ فيه الصعوبة والخروج عن مألوف عادتك، كهذه الاوامر :

« إذهب بعيداً عن البيت بمقدار عشرين ميلًا ، مستقلًا وسيلة عادية من وسائل المواصلات » ..

« إقض اثنتي عشرة ساعة بغير طعام » ..

« لا تتحدث خلال اليوم إلا جواباً عن أسئلة توجه اليك »..

« إقض الليل كله ساهراً منهمكا في عمل »

ولعل هذا الأمر الأخير أكثر الأوامر قيمة .. فاذا اتبعته وجب ان تنفذه بحذافيره ، فلا تمتثل لإغراء النوم ، ولكن أرح ظهرك لحظات في مجلسك عقب كل ساعة تقضيها في العمل ، ولسوف تدرك اذا خضت هذه التجربة ، أي عمق يتصف به العقل ، وأية مقدرة يمتاز بها على العمل دون كلل ، وبأية سهولة نمتثل لإغراء التعب كلما لمسنا إحدى بوادره !..

ثم ضع كل قصاصة في مظروف مقفل ، و « فنط » هذه المظاريف كما « تفنط » ورق اللعب ، وألقها في احد ادراج مكتبك .. واختر يوماً معلوماً كل اسبوعين او كل شهر ، تعمد فيه الى التقاط واحد من هذه المظاريف ، فتفضه وتعمل وفق الأمر الذي اصدرته لنفسك فيه !..

وقد يكون الأمر امراً بالخروج والابتعاد مسافة طويلة عن منزلك ، وقد يكون المطر في الخارج شديداً ، فما لم تكن في حال صحية لا تسمح في الخروج مثل هذا الظرف ، فنفذ الأمر بحذافيره ، فذاك يعود على شخصيتك بقيمة لا تقدر .

وراع ان تتسم الأوامر بطابع الصعوبة والخروج عن مألوف العادة ، ففي ذلك تكمن قيمة التمرين .. أعرف شاباً كان يعاني الخجل ، ألزم نفسه بأن يخاطب ثلاثة من الغرباء كل يوم !.. ولك ان تقدر الفائدة التي عاد بها عليه هذا التمرين !..

وبديل من التمرين السالف ، إن شق عليك ، هذا التمرين ؛ وحبذا لو جمعت بينهما : خصص يوماً تقبل فيه كل دعوة «معقولة» تدعوك الى نقيض ما جرت به عادتك ..

فان كنت مثلاً من انصار الاعتكاف في البيت ، فاقبل كل دعوة للخروج ؛ او كنت مسرفاً في حضور الحفلات والمنتديات ، فارفض في ذلك اليوم ، كل دعوة للخروج ، وانفق الوقت الذي تقضيه في البيت ، على غير مألوف عادتك ، في سبيل انشائي كالقراءة او الكتابة ..

ولسوف تستخلص من هذا التمرين ، فائدة كبرى ، اذ يطلعك على مزايا الأوجه المناقضة لأوجه نشاطك اليومية المعتادة ، والتي لم يسبق لك خبرة بها ، فضلاً عن انه يربي إرادتك ، ويقوي احتمالك لما لم تتعوده من الامور .

وابتدع لنفسك على ضوء هذا الهدف ، تمرينات اخرى تناسب حالتك . وثمة خطوتان نحو ابتداع مثل هذه التمرينات؛ الأولى: أن تتجه بذهنك الى نقطة من نقط ضعفك او قلة خبرتك. والثانية: أن تقرر الوسيلة التي تصحح بها الضعف ، أو تزيد الخبرة — كما في حالة التمرين الذي تقدم للسيطرة على الثرثرة والإسراف في الكلام..

ومتى اعتدت هذه التمرينات ، ولاءمت بين نفسك وبينها ، فسوف تجد أنها ممتعة مسلية الى جانب فائدتها ، وأنها تحل رويداً ، محل اوجه عقيمة للنشاط كنت تقدم عليها ، وتستنفد فيهـــا من

الجهد ما تستنفده في هذه التمرينات ..

على أنك ينبغي وأنت تنشد تقديم نفسك ، وتزويدها بأسباب القوة والمقدرة ، أن تفتق لنفسك من التدريبات أشقها وأكثرها دهاء ، حتى اذا وسعك أن تحقق هذه التدريبات كان احساسك بالنصر اعظم واقوى .. فاذا فرغت من هذه التدريبات ألفيت لك ذخيرة وافرة من الصفات والمقدرات الذهنية يسعك أن تركن اليها كلما احتاج الأمر ..

ولكنك حين تشرع في اجتناء المتعة من ممارسة هذه التمرينات ، ينبغي أن تذكر نفسك أن هذه التدريبات « وسائل » وليست أهدافاً في حد ذاتها ..

فأنت باكتسابك السيطرة على عقلك ، لم تستخدمه بعد « رسمياً » أو عملياً ، وأنما أنت مازلت في دور التحضير والاستعداد شأنك شأن الرياضي الذي يقبل على تنمية جسمه وعضلاته ، فيتناول من الوجبات ما هو مناسب ، ويسير على قدميه المسافة المناسبة ، ويمارس من التمرينات الرياضية ما هو مناسب ، ويتعرض للشمس والهواء وقتاً مناسباً .. ولكنك تزيد على مثل هذا الرياضي كثيراً ، فهو ينمي جسمه وعضلاته كهدف في حد ذاته وليس وسيلة لهدف ، اللهم الا ان يكون يكسب عيشه من قوة بدنه ، ولكنك أنت تكتسب قوة الذهن ، وقوة الارادة ، وتكتسب خبرة وحنكة ومقدرة لكي تستخدمها في حياة أنجح وأرضى ..

●

وننتقل بعد ذلك إلى وجه آخر من أوجه تقويم أنفسنا ، يتصل

اتصالاً مباشراً بما نعانيه من نقص ونقط ضعف ، ويعمد إليها محاولاً تلافيها أو الحد منها ..

لقد كان « بنجامين فرانكلين » يحمل في جيبه دائماً دفترا صغيراً ، ضمنه قائمة مؤلفة من ثلاث عشرة صفة من الصفات المحببة ، أو الفضائل التي يجب أن يتصف بها .. وتحت كل صفة كتب كلمة تقرب معناها إليه .. فمثلا تحت صفة « الاعتدال » كتب : لا تقلل من الطعام إلى حد الحرمان ولا تسرف في الشراب إلى حد النشوة .. وتحت صفة « الصمت » كتب : « لا تتحدث إلا بما ينفع الناس أو ينفعك » .. وكذلك فعل بما تضمنته القائمة من صفات « النظام » و « التصميم » و « الشجاعة » وما اليها ..

ثم انه كان يوم يشير في دفتره هذا باشارة امام كل صفة يبذل في يومه ذاك جهداً لاكتسابها..

وأنت تستطيع ان تصنع مثله .. على انه يكفيك ان تضمّن قائمتك ست صفات في اكتسابها مشقة ، وتعاني من انتقادها اكبر العناء ..

ولنفترض على سبيل المثال، أنك قررت أن النقائص التي تشكوها هي : أنك لا تنجز من عملك ما ينبغي ، وأنك خجول ، وأنك متردد في اتخاذ القرارات ، وأنك ثرثار مسرف في الكلام ، (ولعل الخجل والثرثرة من أشيع النقائص وأعمها) .. وانك غير منتظم في وجباتك او غير معتن بها ، او أنك تقضي في النوم اكثر او اقل مما ينبغي ... فعلى ذلك ينبغي أن تبدو قائمتك كما يلي :

	السبت	الاحد	الاثنين	الثلاثاء	الاربعاء	الخميس	الجمعة
العمل							
الشجاعة							
التصميم							
الكلام							
الوجبات							
النوم							

والإشارات التي تراها في خانة (يوم السبت) تشير الى عدد المرات التي قاومت فيها بنجاح كل إغراء دعاك الى التصرف بطريقة خاطئة ، او الانزلاق الى سابق عادتك ..

فاذا رأيت ، بعد مضي فترة من الزمن ، انه لا يمر يوم دون ان تحفل كل خانة باشارة ، فأنت إذن قد وضعت قدميك في الطريق الصحيح نحو إزالة النقائص التي تشكوها ، واكتساب نقائضها من الصفات الحميدة ، وعندئذ فتخير ست نقائص اخرى ، وكرر التجربة نفسها ..

وقياساً على التجربة السابقة ، يسعك أن تتيح لنفسك مزيداً من التجارب تستهدف تخليصك مما تشكوه من نقائص أو أوجه ضعف ..

اذا كنت حين تستيقظ ، مثلاً ، تميل الى البقاء فترة اطول في الفراش لغير ما هدف ولا نهاية ، فثبت في غرفة نومك لافتة بحيث يقع عليها نظرك أول ما تستيقظ في الصباح ، واكتب عليها : « انهض من الفراش حالاً » ، فهكذا كانت تفعل الكاتبة الروائية « كاثرين مانسفيلد » ..

او اذا كانت الذاكرة تخونك فتسقط من حسابها التفاصيل ، فافعل كما كان احد رجال الاعمـــال يفعل : كان وهو في البيت يذكر شيئاً متعلقاً بعمله فيكتب به مذكرة على «كارت بوستال» ويرسله بعنوانه على مكتبه !

وكان وهو في مكتبه يذكر شيئاً متعلقاً ببيتــه فيكتب به مذكرة يرسلها بالبريد على عنوانه بالبيت !

ومكافأة نفسك على نجاحك ــ فضلاً عن النجاح نفسه وهو خير مكافأة ــ وسيلة اخرى من وسائل الحفز على متـابعة النجاح .. كأن تبتاع لنفسك هدية مما يدخل في باب الكماليات ، كلما نظرت الى دفترك فوجدته حافلاً بالإشارات التي تدل على نجاحـــك في التغلب على نقيصة او نقطة ضعف .

واجعل من دأبك أن تكون صديقاً لنفسك وحازماً معها في الوقت نفسه .. إذا أحسنت صنعاً او اكتسبت فضيـــلة ، او احرزت نجاحاً ، فاجزل لنفسك الاستحسان بل كافىء نفسك بالهدايا إذا شئت ؛ وإذا قصرت ، فليس من الحزم ان تصب عليها اللوم والتعنيف ، بل ان تسد عليها مسالك اي اغراء يدعوها الى الارتداد لنقيصة او لنقطة ضعف ..

ونحن ميالون الى الإسراف في لوم النفس احيانـاً ، بل نحن نتخذ هذا اللوم بديلاً من عمل كان يجب ان نعمـله .. ونكتفي باللوم تبريراً لقعودنا عن العمل !.. ثم ان اللوم لا يصلح خطأ ، بل لعله يكون ادعى الى تثبيط العزم عن إعادة الكرة والمحاولة..

الفصل الثاني عشر

أطيب التمنيات

دعنا في هذه الخاتمة نلخص ما فصلناه :

أول ما تتسلح به لبلوغ النجاح : ان تتصرف كما لو كان الفشل مستحيلاً .

وحين تبدأ في وضع هذه العقيدة موضع التنفيذ ، تكتشف انك في حاجة لأن تدخر اقصى ما يمكنك من الطاقة او المجهود الذي يتبدد هباء في الاحلام والاوهام ، او يكرس لقتل الوقت على غير طائل وبغير هدف ؛ وان توجه هذا المجهود ليخدم غرضاً ويحقق هدفاً ..

وتجد ايضاً انك في حاجة لان تتجاهل ذكرياتك السابقة عن الفشل وما عساه يساورك من خوف الفشل ، وذلك بان ترفض تعليق اهتمامك بالمضايقات الوقتية او بالألم السالف ، وتمتنع عن إحساسك بالحرمان تعهداً يفسح المجال لنكسة او لنكوص ..

وعلى طول الطريق نحو الهدف تدرب ذهنك ، وتتعهد بالرعاية ملكاتك ومقدراتك بحيث تضعها تحت سيطرتك، وتجعلها

رهن اشارتك ، حتى إذا آن أوان استخدامهـــا ، استخدمتها كخبير محنك ..

وسوف يلعب الخيال دوراً مهماً في تحقيق نجـاحك .. ففي نطاقه ترتاد آفاق حياتك ، وتفتق آمالاً ، ورغبـات ، واهدافاً لمستقبلك ، ولكن ثمة فارقاً بين هذا الخيال ، وبين الخواطر او احلام اليقظة ، فأنت بالخيـال تهيىء جواً ذهنيـــاً متحرراً من الشكوك ، والمخاوف ، واسباب القلق ، فمتى تهيأ لك هذا الجو عمدت إلى العمل ..

وفي الفصول القليلة الاخيرة من هذا الكتاب ، ناقشنا اوجه النشاط المفضي للنجاح وجهاً بعد وجه ، ولكنا لم نعمد في المناقشة إلى التحليل او الى الشمول ، وإنما اخذنا هذه الأوجه فعرضناها « عرضاً بطيئاً » كما تعرض « السينما » احياناً مرحلة من مراحل مباراة في كرة القدم او في « التنس » عرضـــاً بطيئاً يصور تفاصيل هذه المرحلة المعينة التي كللت بالنجـاح .. ثم إذا اعادت « السينما » عرض هذه المرحلةضمن المباراة بالسرعة العاديةاوشكت الا تتبين التفاصيل ، ولم تستبن إلا الهدف او الإصابة التي صفق لها الجمهور !..

وعرضنا لأوجه النشاط الناجح هـذا « العرض البطيء » لا يعني بالطبع ان تبطىء انت بدورك ، وإنما اردنا به ان تلم بفن إصابة الهدف ، وان تحكم التدرب على إصـابته ، فإذا تيسر لك هذا ، نزلت إلى الميدان وخضت المباراة، ورحت تسدد رمياتك الى الهدف بالسرعة التي تقتضيها المباراة ..

فإذا انتهيت من مرحلة التدرب والدراسة والاستعداد ، التي تقتضي بطءاً في بداية الأمر — إلى السرعة العادية التي يقتضيها العمل ، فانت اذن في الطريق الصحيح ، وانت إذن خليق بأن تصيب النجاح ..

ولست احاول ان احثك على الاسراع على حساب استعدادك وتدربك ، بل لست احثك على الاسراع في حد ذاته ، حتى مع التدرب والاستعداد ، وإنما احثك على ان تدرك السرعة العادية التي يقتضيها عمل معين ، فلا إبطاء ولا إسراف في الاسراع ؛وقد يكفيك معواناً على قياس هذه السرعة ان تدرك ان كل خطوة ثابتة إلى الامام في سير نظامي رتيب ، إنما هي خطوة نحو النجاح ولا شك ..

واحب هنا ان اشير إلى نوع من انواع النجاح ، لعل لكل منا خبرة شخصية به ، او له على الاقل صلة بمن له خبرة بـه ، ذلك هو النجاح القائم على « شجاعة اليأس » !..

وفي اكثر الاحيان تتأتى هذه الشجاعة الفائقة حين تتوالى على الرجل نكبات تمحو كل بديل من النجاح ! وقد نصف الرجل عندئذ بقولنا « إنه لم يعد له ما يفقده » ! وهنالك يمضي الرجل بخطى جريئة ، وبإصرار شديد ، وبعزم لا يخالجه وهن في سبيل النجاح ، ويتحقق لهذا الرجل — الذي تعين عليه ان ينجح — نجاحاً ساحقاً عريضاً ..

ولو انك تذكر المثل الثالث من امثلة ضحايا إرادة الفشل ، لرأيت ان صاحبنا لم يكن ينجح إلا حين يستبد به اليأس ، وإن

كان هو الذي يخلق اليأس لنفسه .. فإذا بلغ شفا الجرف ولم يعد امامه إلا أحد احتمالين : إما السقوط إلى الحضيض ، وإما القفز فوق الهاوية ، إذا به يثب وثبة جريئة مظفرة .. لقد كان عندئذ فقط يتصرف كما لو كان مستحيلاً أن يفشل !..

ولو خلا تصرف هذا الرجل من الحماقة التي كان يرتكبها في كل مرة ، إذ يستدرج نفسه إلى شفا الهاوية ثم يثب ؛ او يدعو الفشل الى ساحته ليحفزه على مضاعفة الجهد ؛ لو خلا تصرفه من هذه الحماقة إذن لتجلى له طريق النجاح ومقتضياته واضحة جلية ..

فاليأس يقضي على احتمال الفشل ويقصيه من الذهن .. ولكن في وسعنا ان نقضي على هذا الاحتمال ونقصيه عن أذهاننا دون ان نمتثل لليأس .. في وسعنا ان نفعل هذا مستعينين بالخيال ، وهنالك يمحي الفشل ، وتبقى الشجاعة التي تسدد خطانا في طريق النجاح..

والشجاعة المتجهة الوجهة الصحيحة هي مبنى النجاح ومضمونه.. وهي تقتضي ان نخوض التجارب مسلحين بالمرونة تارة ، وبالكبح تارة أخرى ، وان نحسن استغلال إمكانياتنا ومقدراتنا ، وان نرد انفسنا عن الانزلاق إلى الخواطر والأحلام ، وعن اجتناب المسئوليات ، وعن التصرفات الصبيانية التي يعوزها النضج ..

وأحسب أن النجاح في رأى كل راشد حصيف مساو لبذل اقصى ما يستطيع من جهد ، اما ما هو الحد الاقصى لهذا الجهد ، فذلك ما نستكشفه حين نحرر انفسنا تماماً من إرادة الفشل .

تعقيــب

هذا كتاب من اعجب ما قرأت وما عربت !

العجب كان إحساسي الأول وانا اقرأ الكتاب ، واظنه كان إحساسك .. ثم اخلى العجب مكانه للإعجاب .. الإعجاب بنفاذ بصيرة مؤلفته، وبإدراكها الصحيح للطبيعةالبشرية في حالي فاعليتها وخمولها ،وبخبرتها الطويلة التي احسنت تحليلها واستخلاص المبادىء الأساسية منها ..

وتخلى الإعجاب بدوره عن مكانه لإحساس بالرضاء .. رضاء من يلقي عن كاهليه عبئاً ، او رضاء من يجد بين يديه مفتاح سر مغلق ، او رضاء من يغمره النور بعد ان ملّ الظلام ..

وعسى ان يتعذر عليك استيعاب مضمون الكتاب حتى تأتي عليه إلى نهايته ، او يشق عليك فهم فكرته الأساسية حتى تفرغ من قراءة آخر سطوره، ولهذا اردت ان ازجي إليك هذا التعقيب لعله يلقي الضوء على زاوية ما زال يلفها الأبهام ..

فهذا كتاب عن النجاح .. النجاح في الحياة العمليــة وفي الحياة عموماً ..

والنجاح هو نقيض الفشل ، وهو الفشل الذي ركزت فيـه

الكاتبة اهتمامها ، وسلطت عليه الاضواء ، لعلك إن فهمت كيف يتأتى ، وكيف يعمل جهازه ، وإن ادركت ماهي بواعثه ، وما هي اعراضه ، وسعك عندئذ ان تتحول عنه إلى نقيضه : النجاح ، وفقاً لقول القائل : « وبضدها تعرف الأشياء » ..

والحق ان الكاتبة قد شرّحت الفشل تشريحاً دقيقاً : فصلت اجزاءه واخرجت احشاءه ، وبترت اعضاءه ، وعرضته مجزءاً ، مفصلًا امام الانظار !

وقد بدأت المؤلفة عملية تشريح الفشل بتقديم حقيقة واقعة ما اسرع ما يؤمن المرء بصدقها ، تلك ان ثمة « إرادة للفشل » تفعل فعلها في حياتنا ، كإرادة الحياة ، وإرادة السيطرة .. وما اسهل ما يقتنع المرء بحقيقة وجود هذه الارادة ، إذا تدبر الامر قليلًا .. فكلنا اهون علينا ان نحلم ولا نعمل ، وأيسر علينا ان نقعد ولا ننهض ، وان ننام ولا نستيقظ ، وأن نهدم ولا نبني ، وأن ننتقد ولا ننشيء .. ومن ثم ان نفشل ولا ننجح !

فذلك دليل على أن ثمة ارادة تنزع بنا نحو الفشل تعمل عملها في كياننا .. ولكن اخطر من ذلك أن تستخفي أعراض هذه الارادة فلا تستبين .. ويحسب المرء ، وهو يبذل جهداً لا شك فيه ، أنه يمضي الى النجاح ، وهو في الحقيقة يتجه الى الفشل !

ذلك ان ما يبذله من جهد انما هو جهد زائف ضائع مبدد ، أو جهد مبذول في اتجاه خاطىء .. ولو ان هذا الجهد أو بعضه كان جهداً صادقا مستهدفا النجاح لنجح المرء نجاحاً باهراً ، وفي ذلك تقول المؤلفة ان الجهد الذي نبذله لاجتلاب الفشل يكفي

في ان يبلغنا النجاح» . وقد رسمت في فصول الكتاب كيف يتأتى هذا ..

ثم تستطرد المؤلفة في عملية تشريح الفشل حتى تبلغ السبب الذي من أجله نرضى بالفشل اذا قدم ، ونتعزى عنه اذا وقع ، فتقول إن للفشل ثماراً تجتنى .. وقد عددت هذه الثمار وأحصتها! ولعلك احسست بصدى يتجاوب في نفسك لكل ثمرة أحصتها .. فالفشل لا يجر عليك النقد الذي يمنى به الناجحون .. والفشل لا يقتضيك ان تكون في حركة دائبة وتفكير مستمر ، وحرص شديد ، كما يقتضي النجاح لتدعيمه وترسيخ دعائمه ، وصيانته من الانهيار .. واهم من ذلك ان الفشل يكسبك عطف الناس وشفقتهم ، كما نعطف على العاجز ، ونشفق على المستضعف الذي لا حول له ولا قوة ..

ولقد خصصت الكاتبة نصف فصول الكتاب تقريباً لتعريفنا بالفشل : إرادته ، وأعراضه ، وثماره ، وضحاياه ؛ وتحولت بعد ذلك ترسم لك طريق التحول عنه إلى النجاح ، وتوجز لك القول في مستهل الافاضة والاسهاب فتقول لك « تصرف كما لو كان مستحيلًا عليك أن تفشل » ..

وفلسفة «كما لو كان» فلسفة عملية تُعقب نتائج ظاهرة ملموسة، وهي فلسفة نادى بها اقطاب مذهب « البراجماتزم » — المذهب العملي — وعلى رأسهم أعظم علماء النفس في هذا الجيل « وليم جيمس » .. وهي فلسفة تستطيع أن تجربها على الفور ، وتلمس آثارها ..

يكفي ان ترسم على وجهك علائم السرور ، وان تتصنع الابتسام والرضاء ، حتى تحس من فورك كأنك مسرور راض فعلاً ، ولست متصنعاً .

وتلك هي وسيلتك لأن تبدأ التحول في طريق النجاح .. البداية على الأقل لا بد لها من هذا الاصطناع ، ولكنك لا تستطيع أن تمضي في الطريق متصنعاً ، مجرداً من الاسلحة التي لا غناء عنها في سبيل النجاح ، أو متخاذلاً عن انماء مقدراتك وملكاتك ومواهبك ، أو قاعداً عن تدريب ذهنك ، أو رياضة ارادتك ، ومن ثم تمضي الكاتبة تعد لك أسلحة النجاح ووسائله وسبله .

ولعل امضى هذه الاسلحة هو الخيال .. وهنا تبادر المؤلفة الى تحذيرك من أن تخلط بين الخيال وبين الاحلام أو الخواطر .. فالخيال الصحيح هو الذي يرسم صورة لما يمكن ان يحدث ، أما الاحلام فترسم صوراً قد يتعذر حدوث اكثرها .. والخيال يستهدف هدفاً : هو تصوير الطريق الذي تمضي فيه ، ورسمه بدقائقه وتفاصيله ، بل تصويرك انت ماضياً في الطريق ؛ اما الأحلام والخواطر فتضرب على غير هدى وبلا هدف .. والخيال يتطاول الى المستقبل على اساس من الحاضر ، اما الاحلام فاذا انصرفت عن الماضي الى المستقبل لم تحفل بالحاضر ولم تقم له وزنا .. والخيال يمدك بقوة حافزة دافعة ، أما الخواطر فتسلبك هذه القوة ، وإن حفزتك إلى شيء فالى التخاذل والقعود !..

تلك هي الفروق بين الخيال وبين الاحلام . وقد كنا في صبانا ، وقبل ان تكون لنا في الحياة تجارب ، بعضها قاس مرير ،

نحسن التخيل الانشائي اكثر منا اليوم ، وقد كان المفروض ان تنمي المدرسة او تنمي البيئة التربوية فينا المقدرة على الخيال الانشائي الصحيح ، ولكن اية منها – للأسف – لا تفعل ،ومن ثم كان لزاماً علينا ان نتولى نحن انفسنا هذه المهمة ..

اولاً تذكر في صباك ، انك اعتنقت املا او تخيلت مستقبلاً، وعزمت عزماً اكيداً على ان تحقق هذا الامل ، وتبلغ ذاك المستقبل لا يحولك عنها شيء ؟!.. ولكنك تنظر الآن ، فإذا انت بعيد من املك الاول بعداً يقاس بالفراسخ والاميال ! لم يأخذ بيدك احد ليسدد خطاك في الطريق الصحيح لتحقيق الأهداف .. لم يحفل احد بأن يدلك على سبيل تنمية مقدراتك ، ورياضة ذهنك ، وتربية ارادتك لتبلغ الأمل الذي اليه طمحت، لم يفعل لك احد شيئاً من هذا القبيل ، ولا حتى المدرسة ، برغم ان هذا هو هدفها الوحيد ، ولا ارى لها هدفاً آخر !

فهذا النوع من الخيال الذي ملكت زمامه في صباك ، هو ما تريد المؤلفة ان تعود اليه من جديد ، هو الخيال الإيجابي الذي يدفع ويحفز ، ويلهم . تعود اليه، بوصفه سلاحا ضروريا اوليا، ولكنه ليس السلاح كله ، بل لا بد لك معه من تنمية المقدرات ورياضة الذهن ، وتدريب الارادة .

والمؤلفة تبين لك السبيل الى ذلك نظريا وعمليا .. فمن الوجهة النظرية تبين لك ان عليك اولاً ان تحدد مقدراتك ومواهبك دون ان تبخسها او تبالغ فيها ، وعليك ثانيا ان تؤمن بأنك ، لكي تستخدم اقصى مقدراتك ومواهبك لا بد من ان تدرب

ذهنك على استخدامها ، وتروض ارادتك على السيطرة على افعالك وعلى توقيت هذه الأفعال ، وعلى توجيهها الوجهة الصحيحة ..

ثم هي من الوجهة العملية ، تسوق لك تدريبات تستهدف الهدفين : تدريب الذهن ورياضة الارادة ، ولا تفتأ تحثك على ابتكار تدريبات اخرى على نسقها ومنوالها تستهدف الهدفين نفسيهما ..

وعسى ان تبدو لك بعض هذه التدريبات اشبه بما يقوم به « اليوجي » في الهند وغيرها ، وخاصة التدريب على التزام الصمت او حصر التفكير في موضوع واحد ، او التزام نهج معين في المناقشة والتفكير ، فان بدا لك هذا فلا اخالك إلا تعتقد ان « اليوجي » قد بلغ الذروة في سيطرته على ذهنه ، وارادته ، وخير لك ان تأخذ عنه ، ولو بقدر ، في هذا المضمار ..

ثم في خاتمة الكتاب تلفت المؤلفة نظرك الى سلاح بتار من اسلحة النجاح ذلك هو : الشجاعة .. وانك لتجد اكثر الناجحين يتصفون بهذه الصفة ، بل انك لتجد اكثر الفاشلين الذين بلغوا الحضيض قد شقوا طريقهم الى النجاح معتمدين عليها ، فحين لم يعد لهم ما يخسرونه وحين اغلقت في وجوههم كافة المنافذ التي يتعزون بها من الفشل ، لم يعد امامهم إلا ان ينجحوا ، فمضوا في طريق النجاح بشجاعة نادرة ، هي التي نسميها « شجاعة اليأس » .. وهي هذه الشجاعة التي تريدك الكاتبة على ان تتصف بها ، ولكن دون ان تنتظر حتى تسد المسالك امامك وتغلق المنافذ دونك ؛ ولسوف تستمد هذه الشجاعة حتما متى ركنت الى اسلحتك التي لا بد منها للنجاح :

الخيال وتنمية المقدرات ، ورياضة الذهن ، وتدريب الإرادة.

●

واذا كان الخيال هو العامل الأول الذي لا بـــد من توفره لبلوغ النجاح ، او لتمهيد الطريق اليه ، فرأيي أن المؤلفـــة قد وضعت كتابها بحيث لا بد لك من الاستعانة بالخيـــال كي تفهم هدفه ، وتستوعب مضمونه ، وتهضم فكرته !

لقد كان حديثها كله عن النجاح .. او كان النجاح هو الهدف الذي تمثله في كل سطر من سطور الكتاب ، ولكنها عزفت عن معالجة الموضوع بالطريقة « الكلاسيكية » التي لا تتيح للقارىء ان يعمل ذهنه أو يحرك خياله .. لم تحدثك عن النجاح في تسلسل « كلاسيكي » يبدأ بالتعريف وينتهي بسرد نصائح تعينـــك على بلوغ النجاح .. كلا ، وإنما هي بدأت فحدثتك عن الفشل ، وعن انواعه ، وضحاياه ، وثمراته ، ثم استطردت توجـــه نظرك الى صفات معينة لا بد لك من اكتسابها ، ثم مضت تقدم لك تدريبات تستهدف ترويض ذهنك وتدريب ارادتك .. ولقد تركت لخيالك مهمة وصل اطراف الموضوع بعضها ببعض ، واستبانة الوحـدة التي تنظم فصول الكتاب كما تركت لذهنك مهمة استيعاب الفكرة الأساسية ، ورسم خطتك أنت الشخصية لبلوغ النجاح . بعـد ان تكون قد دربت ذهنك ورضته على حسن الاداء .

ونصيحتي اليك ، وقد فرغت من قراءة الكتـاب ، وقراءة هذا التعقيب أن تعود الى الكتاب مرة اخرى ، وقد شحـذت خيالك ، وأعددت ذهنك ؛ ولسوف تدهش لوفرة المعلومات التي

تخرج بها من قراءتك الثانية ، عن النجاح وكيف يتحقق ، ومدى استعدادك لتنفيذ التدريبات التي تنصح بها المؤلفة ، والتي عساك اكتفيت منها بالقراءة دون التطبيق !

وكما ختمت المؤلفة كتابها ، أختتم تعقيبي قائلًا في صدق واخلاص :

أطيب التمنيات »

عبد المنعم الزيادي

فهرس

كتب للمعرب

●

كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس	ديل كارنيجي
دع القلق وابدأ الحياة	ديل كارنيجي
إدفعي زوجك الى النجاح	دوروثي كارنيجي
أتح لنفسك فرصة	جوردون بايرون
استمتع بالحياة	لورانس جولد
طريق الشخصية الجذابة	جيمس بندر
أعصابك	الدكتور أرنولد جاكسون
استكشف شخصيتك في دنيا الناس	وليم ا . هنري (تأليف)

تحت الطبع

كيف تحقق آمالك	إلمر هويلر
المرض النفسي طريق الى السعادة	الدكتور لويس بيش
من أنت ؟	[الكتاب الأول في سلسلة «الشباب والحياة»]